روايات مصرية للجيب

سلسلة الروايات

4

Looloo
www.dvd4arab.com

رجل من وهم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٣٧٠٠٤

مقدمة

لا ضرورة لها

لنبدأ بالتعارف ..

أنا اسمى (نسرين) ، تخرجت منذ عامين تقريبًا فى كلية الإعلام ، وأعمل الآن صحفية فى مركز لا بأس به بالنسبة لحداثة سنى وخبرتى ، فى إحدى الصحف الأسبوعية المستقلة التى تكتظ بها أرصفة العاصمة ، وتنوء أكتاف باعة الصحف الجائلين بحملها ..

يلوح فى أعينكم تساؤل أعرف أننى مضطرة للإجابة عنه :

ما دمت تعرفيننا نفسك ، فلماذا إذن ترين أنها مقدمة لا ضرورة لها ؟!

صدقونى .. إنها ليست نوعًا من (الفذلكة) الأدبية الرخيصة ..

وصدقونى أيضًا ، أنا لا أعلم لماذا أقدمت على كتابة عنوان غريب كهذا ؟!

ربما كانت محاولة منى للخروج عن النمط السائد ، وهى إحدى عاداتى الكثيرة التى لا تكون نتائجها مستحبة فى كثير من الأحايين .. ربما لأنى لست من هواة قراءة مقدمات الكتب ، فمن رأيى أنها محاولة بائسة من المؤلف والناشر معًا ، لزيادة

عدد صفحات الكتاب ، وبالتالى زيادة سعره ، وتكون النتيجة أرباحًا أكثر .. أو ربما هى محاولة منى لتقليد أسلوب السيد (س) فى سخريته اللاذعة من كل شىء وأى شىء .. ولا أعتقد أننى نجحت فى بلوغ الواحد من الألف من مهارته فى هذا المضمار ..

آه .. السيد (س) ..

اللغز المستغلق على نفسه ، كمومياء ، فى قلب تابوت فرعونى .. والسر الذى ربما أفنيت عمرى كله دون أن ينكشف لى ولو جزء منه .. والحلم المتنكر فى هيئة كابوس مرعب ، أو الكابوس المتمثل فى شكل حلم شفاف ناعم !

من هو السيد (س) ؟!

ليتنى أعرف ! لما أمسكت بقلمى لأنثر فوق السطور حيرتى ، الممزوجة بالمخاوف تارة وبالإعجاب تارة أخرى ، ولما فكرت فى أن أجعلكم طرفًا رابعًا - يكتفى بدور المراقب - فى مثلث الصراع المستمر حتى هذه اللحظة ..

السيد (س) ، وأنا ، والرائد (هشام) ..

عذرًا ، لقد نسيت أن أعرفكم إياه ، برغم كونه الطرف الأهم فى هذا الصراع .

إنه ضابط مباحث جنائية - برتبة (رائد) بالطبع ! - يتوقع له رؤساؤه مستقبلاً باهرًا فى سلك الشرطة ، لما يملكه من حاسة بوليسية يراها البعض فريدة ، والبعض الآخر نادرة !

ومهارات خاصة فى التعامل مع القضايا المسندة إليه ..
ولا أعتقد أننى أبالغ ، أو أحابيه لمجرّد أنه خطيبى !!!
سترون بأنفسكم إن كانوا على حق أم لا ..

تفاصيل نشأة العلاقة بينى وبينـه ليست محل اهتمامنـا الآن ـ ولكن ربما كتبتها يومًا لتتابعوها فى سلسلة (زهور) ! ـ ولن أطيل عليكم فى تفاصيل ستعرفونها تلقائيًا من سياق القصة ..

ولكنى ما زلت حائرة ..

من أين أبدأ ؟!

لنبدأ القصة من بدايتها ..

من ذلك اليوم الذى بدأ فيه اسم السيد (س) يقتحم حياتنا ، ويفرض عليها وجوده وبصمته الخاصة ..

كنت ـ وقتها ـ لا أزال طالبة فى السنة النهائية من كلية الإعلام ، ولم تكن قد مضت على خطبتى لـ (هشام) سوى شهور قلائل ..

نعم .. إننى أذكر هذا اليوم جيدًا ..

* * *

١ ـ شخص أعرفه ..

عندما يقترن نعت (الأول) بأى اسم يسبقه ، فإنه يمنحه رونقًا خاصًا يمتزج فيه الغموض بالرهبة بالرغبة فى كشف الستار عن المجهول ..

هكذا شعرت عند لقائى الأول بالسيدة (ألفت) ..

كنت لا أزال طالبة فى السنة النهائية من كلية الإعلام ، طفلة أحبو فى مهد أحلامى ، تبهرنى صاحبة الجلالة ببريقها الساحر الأخّاذ ، أحلق بأجنحة خيالاتى لأحط فى بلاطها ، ولأرى نفسى ـ بعيون المستقبل ـ وصيفة من وصيفات البلاط الجليل ..

وكانت السيدة (ألفت) ـ وما زالت ـ رئيسة لتحرير صحيفة (الأربعاء) التى أصدرتها وقتها ، لتحتل فى زمن قياسى مكانًا فى أعلى قوائم التوزيع ، ولتنافس بها ـ على الرغم من كونها صحيفة أسبوعية مستقلة ـ صحفًا أخرى أقدم منها تاريخًا وأرسخ منها جذورًا فى عالم الصحافة ..

لكن القارئ لا يعترف إلا بالأجود والأحسن ، وقد استطاعت السيدة (ألفت) أن تستحوذ على قلوب وعقول آلاف القراء بما تقدمه الصحيفة من موضوعات مهمة وجديدة وجريئة فى قالب

جديد ومتجدد لا يتوقف أبدًا عن التطور فى سبيل الوصول للأفضل ..

وكنت وقتها مفتونة بصحيفة (الأربعاء) .. كنت أعدها ثورة على المفاهيم السائدة ـ التى تحولت بالتقادم إلى تابوهات مقدسة ـ فى إخراج الصحف ، وتطعيمها بالموضوعات التى تثير اهتمام القارئ وتلهب خياله وتفجر جدالات لا تنتهى بين الرأى العام المتابع ..

وكان حلمًا من أحلامى البعيدة أن أحظى بشرف العمل ـ ولو كمشاهدة ـ فى هذا المطبخ الصحفى ، الذى ينتظر الجمهور بفارغ الصبر الأصناف التى يقضى طاقم العمل أسبوعًا فى تجهيزها ، لتخرج كل أربعاء فيلتهمها الجمهور بنهم من صام أسبوعًا متواصلاً دون انقطاع ..

كان حلمًا أفيق منه عند الصفحة الأخيرة ، عندما أتم قراءة مقال السيدة (ألفت) ، وألتفت فلأرى نفسى طالبة ما زالت الخبرة تنقصها ، وما زالت فى حاجة لأن تتعلم الكثير ..

هكذا سيرانى الجميع ..

متفوقة فى دراستى .. نعم .. أقرأ كثيرًا وأكتب كثيرًا ، وأتابع كل الصحف والمجلات والقنوات الفضائية ، ومواقع شبكة الأنترنت الإخبارية والتثقيفية .. نعم .. تنشر لى صحف

الجامعة الكثير من إنتاجى الذى يحظى غالبًا بإعجاب ومدح وتقريظ الأغلبية .. نعم .. ولكن من يرى فى المعتاد أبعد من أسفل قدميه ؟! من سيرى فىّ أكثر من فتاة جاوزت العشرين بأعوام معدودة ؟! ومن يهتم بفتاة تريد أن تتعلم وتتشرب خبرة من سبقوها ؟!

من ؟!

وفى يوم ما ، قررت أن أتحدى نفسى .. وأقوم بتجربة مجنونة من تجاربى التى لا تنتهى ..

ـ سيقتلك جنونك هذا يومًا ..

دائمًا يقولها (هشام) .. وغالبًا ما تأتى العواقب بأفضل مما يتوقع .. وما أتوقع أنا شخصيًا .. بكثير ..

لقد قرّرت يومها أن أذهب بنفسى إلى مقر صحيفة (الأربعاء) المنشور فى مربع صغير أسفل الصفحة الثانية ، وتحته هواتف وفاكسات ذات أرقام كثيرة ..

تهيأت تمامًا ، ارتديت ملابس الفتاة العملية ، ونسقت شعرى الكستنائى القصير ، ونظفت زجاج منظارى الطبى ـ الذى أستخدمه عادة للقراءة ـ وقررت ارتداءه ليعطينى ملامح وقورة أكبر من سنى الحقيقى ، ووضعت ماكياجًا خفيفًا للغاية ، وأخبرت (رحاب) هاتفيًا بأننى لن آتى اليوم إلى الجامعة ..

وانطلقت بى سيارة الأجرة نحو العنوان المذكور ..

شعرت بقلبى يخفق فى قوة ، وشعرت أن قدرتى على التفكير قد تلاشت ، وأننى أصبحت ذرة هائمة فى فضاء سرْمَدى شاسع .. ولست أذكر كيف سارت الأمور ، حتى وجدت نفسى أقف أمام مدير مكتب السيدة (ألفت) ، راسمة على شفتى المطليتين باللون الوردى الهادئ ابتسامة ثابتة ـ لا أدرى إن كان لاحظ أنها مصطنعة ـ وأقول فى نبرة رقيقه أجاهد حتى لاترتعد :

ـ أود مقابلة السيدة (ألفت همام) من فضلك ؟!

ثم ابتلعت ريقى فى غير صوت ، محاولة السيطرة على حفلة الديسكو الصاخبة داخل قفصى الصدرى ، بينما نظر هو إلىّ نظرة عميقة لم أفهم مغزاها ..

هل يفهم أحدكم معنى أن ينظر إلى من أعلى رأسى حتى أسفل قدمى ؟!

لا أعتقد أننى أريد أن أفهم ..

أشار إلىّ بالجلوس فجلست بسرعة ، ثم فتح المحضر فى ساعته وتاريخه :

ـ ما اسمك يا آنسة ؟!

ـ (نسرين) !

ـ هل لديك موعد سابق مع السيدة (ألفت) ؟!

ـ فى الواقع .. لا !

ـ وما سبب رغبتك فى مقابلتها إذن ؟!

ـ موضوع شخصى !!

سددت أمامه كل الطرق التى يريد أن يتسلل منها ، ليتلو أمامى النشيد المعتاد الذى يحفظه أى مدير مكتب أو سكرتير عن ظهر قلب :

ـ يمكنك إخبارى بما تريدين ، وسأعرض عليها الأمر بنفسى !!

ويبدو أن ردى قد أحنقه نوعًا ، فعاد يسألنى من جديد :

ـ عذرًا لذاكرتى الضعيفة .. ما اسمك مرة أخرى ؟!

اتسعت ابتسامتى الهادئة وأنا أقول فى رصانة لا تخلو من برود :

ـ (نسرين فاروق الجبالى) !

شعرت أن حنقه قد ازدادو هو ينهض حاملاً بعض الملفات .. ثم يدلف عبر الباب الخشبى الكبير إلى غرفة (رئيس التحرير) ، كما دوّن على لافتة عريضة ..

وجلست أنتظر ودقات قلبى تتزايد ..
وتتسارع ..

★ ★ ★

توقعت أى شىء ..

أن يخرج مدير المكتب بابتسامة ظفر شامتة ليخبرنى بأن السيدة (ألفت) فى اجتماع مهم .. أو بأنها مشغولة فى بعض أعمال مراجعة (الماكيت) .. أو حتى بأنها مريضة على أحسن الفروض .. أو ربما يكون القدر كريمًا معى ـ كحاتم الطائى ـ فيعطينى ميعادًا آخر للزيارة ..

لكن أن يخرج مدير المكتب وعلامات التجهم على وجهه قد ازدادت ، ليقول بلهجة جافة :

ـ ستقابلك السيدة (ألفت) بعد قليل !!

فهذا ما لم يخطر ببالى قط !

جلست أضرب أخماسًا فى أسداس .. أحاول ترتيب بضع جمل مفيدة فى رأسى لألقيها على مسامعها وأجذب انتباهها من أول لقاء ، لكن عقلى كان أشبه بصفحة بيضاء ناصعة (أنظف من الصينى بعد غسيله) كما يقول المثل الدارج ..

مر وقت لم أحسبه ، لم أعرف حتى إن كان طويلاً أو قصيرًا ، دخل الكثيرون إلى الغرفة وخرج الكثيرون .. وانهمك مدير

المكتب فى مراجعة أوراق أمامه ، ولم يرفع رأسه لتلك النحنحة التى كنت أصدرها بين الفينة والفينة ، لأكسر بها رتابة الموقف ، ولأهزم بها خوفى المتنامى فى أعماقى .. كشجرة صبار ذات أشواك مؤلمة ..

وفى النهاية ، رفع مدير المكتب رأسه .. بعد مكالمة هاتفية سريعة ، جاءته فى الغالب من الداخل ، ليقول مشيرًا إلى باب الغرفة :

ـ تستطيعين الدخول يا آنسة (نرمين) !

هل كان يحاول مضايقتى ؟! ليكن .. البادى أظلم ..

رسمت ابتسامة مستفزة قلت من خلالها كلمة واحدة :

ـ (نسرين) !

ولم أعره التفاتًا ..

وتجاوزت الباب المفضى إلى الغرفة بخطوات مختالة ، كطاووس بين سرب من الغربان !

★ ★ ★

ـ (نسرين فاروق الجبالى) .. هل يبدو لى اسمًا مألوفًا ؟!

تبًا ! هذا ما كنت أخشاه !!

ـ هل أنت ابنة الدكتور (فاروق الجبالى) ؟! جراح المخ والأعصاب الأشهر ؟!

هززت رأسى بالإيجاب ، ولم أنبس ببنت شفة ..

لم أكن أود أن يكون التعارف بهذه الطريقة ، وإلا للجأت لوالدى رأسًا ..

كنت أعرف أنها تعرفه ، لقد نشرت الصحيفة له حواران وتحقيقات كثيرة ، حول نجاحاته التى لا تنتهى فى مجال تخصصه الدقيق ، وحول أبحاثه العلمية الرائعة ، والمؤتمرات التى حضرها ، والجوائز الدولية التى حصل عليها من مؤسسات وجمعيات لها ثقلها .. لكنى لم أتوقع أن تربط بينى وبينه من مجرّد الاسم !

كنت أريد أن أقدم لها نفسى كصحفية شابة تبحث عن فرصة ، لا كابنة الجراح الأشهر المدللة ، التى أعجبتها لعبة الصحافة فأبت إلا أن تحوزها !

هل كان المتنبى هو القائل :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى

وبنفسى فخرت لا بجدودى ؟!

نعم .. أعتقد أنه هو !

ـ لوالدك سمعته المدوية التى جاوزت الوسط الطبى إلى الوسط الصحفى !

أشعر بالفخر حقًا لأنه والدى ، لكنى أريد أيضًا أن أشعره بالفخر لأنى ابنته !

ـ ألهذا السبب وحده سمحت لى بمقابلتك ؟!

لاحظت بكل تأكيد الجمود الذى اعترى قسماتى ، ولعلها سمعت نبضات قلبى التى كاد علوها يجاوز دقات (بج بن) ، أو لربما رأت صدرى وهو يعلو ويهبط .. فنظرت إلىّ من خلف منظارها الطبى الصغير قائلة فى لهجة لم أفهمها :

ـ هذا يتوقف على السبب الذى من أجله طلبت مقابلتى ..

استجمعت شجاعتى فى نفسٍ ملأت به صدرى ، ثم رفعت أصبعى الإبهام أمام الخنصر وأن أقول مستعدة للاستطراد :

ـ أولاً .....

سحقًا لجرس الهاتف اللعين !

زفرتُ ممتعضة ، وتبخرت الكلمات التى أعددتها فى رأسى .. وبقيت الصفحة الناصعة البياض ، بينما أنهت السيدة (ألفت) حديثها الهاتفى فى اقتضاب سريع ، ثم عادت لتنظر إلى بعينيها الضيقتين ..

ـ مازلنا عند أولاً !

وقبل حتى أن أفتح فمى ، رن الهاتف مرة أخرى ، فردّت فى اقتضاب أشد ، ثم أمرت مدير مكتبها بتلقى جميع المكالمات حتى تفرغ من مقابلتى ، وسددت إلىّ نظرها مرة أخرى واصفة إياى فى الموقف الذى أبغضه منذ نعومة أظفارى .

موقف الامتحان السخيف ..

تنهدت فى قوة ، ثم أطلقت العنان لسجيتى ، فتحدثت بالنيابة عنى :

ـ باختصار شديد ، أنا طالبة فى السنة النهائية من كلية الإعلام .. أعشق الصحافة ، وأبحث لإنتاجى الصحفى عن مكان تحت الشمس !

كنت أتحدث بسرعة كأننى خائفة من نسيان كلمة ، فيجىء السياق بلا معنى .. وران الصمت على المكان .. ظللت أحدق فى ملامح السيدة (ألفت) ، وأغوص فى التجاعيد الساكنة بوجهها المليح ، وهى كذلك ، حتى قالت بعد أن تأكدت من أننى أنهيت حديثى :

ـ بديع .. وماذا أيضًا ؟!

ـ هذا كل شىء ..

ثم عدت أُجمِل فى عبارة واحدة :

ـ أمنيتى أن أعمل وأتعلم هنا .. فى صحيفة (الأربعاء) ..

لم ترد على الفور .. تملت فى وجهى قليلاً ، ثم تراجعت بظهرها تسألنى :

ـ وماذا لديك لتقدميه ؟!

وكأن سؤالها كان ضغطة الزر التى فتحت البوابات المغلقة على حماستى الفياضة ، فانطلقت مأخوذة بسكرة حلمى الأثير :

ـ الكثير والكثير من الأفكار والأحلام .. إن دراستى للصحافة قد .....

قاطعتنى بقولها :

ـ القاعدة الذهبية للنجاح فى صحافة اليوم ، أن تلقى بكل ما تعلمته من قواعد وثوابت صحفية ـ أكل عليها الدهر وشرب ثم تجشّأ ـ فى أقرب سلة مهملات ..

كبح قولها جماح لسانى ، لكنه نجح فى إثارة إعجابى بالمنهج الذى تسير عليه الصحيفة من نجاح إلى نجاح .. واستطردت قائلة :

ـ لم أقرأ لك شيئًا بعد ، لكننى أستطيع أن أشم رائحة الصحفى الجيد من على بعد أميال عبر المكان والزمان !

- هل أعتبر هذا وعدًا بالمساعدة ؟!

- أكثر من ذلك .. اعتبريه وعدًا بالنشر إذا ما توافرت لديك قصة جيدة !

إنها تمنحنى أكثر مما جرؤت على التمنى .. وتمنحنى جناحين أحلق بهما إلى آفاق المستحيل .. وتنفخ فى لهيب حماستى وقدراتى ..

- القصص الجيدة كثيرة .. ولكن أين يمكنى أن أعثر على قصة لم يكتبها أحد ؟

- اتركى هذا للقدر .. بعض الصحفيين يلمعون نجومًا مع أول كلمة تنشر لهم ، وبعضهم يقضى العمر مغمورًا فى صالات التحرير ، حيًا ميتًا !

أرعبتنى الفكرة ، وعادت السيدة (ألفت) تشد من أزر أحلامى :

- يمكنك أن تبدئى بالمحيط الذى تتواجدين فيه .. الأسرة ، الأصدقاء ، المعارف ...

ورأيت حاجبيها الرفيعين ينعقدان ، وهى تحدق فى يدى اليمنى ، ثم سألتنى :

- هل أنتِ مخطوبة ؟!

لم أفطن لمغزى سؤالها ، فهززت رأسى إيجابًا برغم أنها تعرف الإجابة بالفعل .

فلا معنى للدبلة فى بنصرى الأيمن إلا أننى مخطوبة بالفعل .. فسألتنى مجددًا :

- وماذا يعمل خطيبك ؟!

من باب الفخر قلت :

- ضابط فى المباحث الجنائية .

راق لها ما قلت .. فأشارت لى بقلم أسود فى يدها قائلة :

- إنها فرصتك المثلى ليكون لك مكان محترم فى صفحة الحوادث !

وفهمت ما ترمى إليه ، برغم أنه لم يعجبنى ، ويتنافى مع القرار الذى اتخذته كمبدأ ..

لن أعتمد على أحد فى نجاحى المبكر ..

لن أعتمد إلا على نفسى ..

هذا قرارى الأخير ..

★ ★ ★

انتهت المقابلة ، ولم أنس عند خروجى من الغرفة أن أرمق مدير المكتب بنظرة جليدية أجيد تسديدها وأعرف أثرها جيدًا ..

انتهت المقابلة ، ولم أنس عند خروجى من الغرفة أن أرمق مدير المكتب بنظرة جليدية ، أجيد تسديدها وأعرف أثرها جيدًا ..

المزيد والمزيد من الاستفزاز ..

وهذا ما كنت أبغيه تمامًا ..

ما زال الوقت مبكرًا ، لم أتوقع انتهائى من مهمتى المجنونة بهذه السرعة ، لأذهب إلى الكلية إذن ، عسى ألا تفوتنى المحاضرة الأخيرة ..

وفى الطريق ، جلست فى سيارة الأجرة أستعيد ذكريات اللقاء ـ الذى لم يمض عليه إلا أقل القليل ـ فى بطء وتلذذ ، كأننى أمتص قطعة من السكر موضوعة تحت لسانى .. وأخذت الخواطر تصول وتجول فى دماغى ..

إنها فرصتى لأثبت للدنيا كلها أننى أستطيع فعلها .. سأعثر على قصة فريدة أصعد بها أول درجات سلم المجد والشهرة .. ولكن يبقى السؤال : أين ؟!

المحيط الذى أتواجد فيه ؟! أبى فى مستشفاه آناء الليل وأطراف النهار غارق فى علاج مرضاه واستنباط نتائج أبحاثه ، وإشرافه على الأطباء الجدد ، أمى قد رحلت إلى ملكوت السماوات العُلى منذ كنت طفلة صغيرة ، لا أذكر منها إلا صورة باهتة ، ولا أعرف من ملامحها إلا ما تبينه الصور الفوتوغرافية ذات الجودة المنخفضة ، ولا أملك أشقاء ولا شقيقات ..

الأصدقاء ؟! مَن غير (رحاب) توءم روحى مذ كنا أطفالاً نلهو فى ساحة رياض الأطفال ؟ و (مروة) صديقتنا العاقلة الهادئة المحجبة ؟! وزملاء الدراسة فى الجامعة ؟! وماذا يمكن أن أجد فى محيط الجامعة إلا قصص الحب الرومانسى التى تنتهى غالبًا بالفراق ونادرًا بالصداقة مرة أخرى ؟!

أحتاج لقصة غير عادية .. حادثة غريبة .. موقف لا يتكرر ..

ها هى ذى الجامعة .. ليس هذا ميعاد أى محاضرة أو (سكشن) .. سأعثر على الجميع فى الكافتيريا إذن .. ولكن ...

أشم فى الجو عبقًا غير مألوف ..

شىء ما يحدث ..

روح من الهدوء المريب المباغت تكتنف الطلبة الذين لايكفون عن إثارة الصخب والضجيج .. مسحة من الحزن الهادئ تشع برمادية كسيرة ..

ما الأمر ؟!

ـ هل تعرفين (وليد يسرى) ؟!

فاجأتنى (رحاب) بالسؤال .. وللاسم رنين مألوف ..

نعم .. هذا الشخص أعرفه ..

ـ ما به ؟!

ـ وجدوه قتيلاً فى شقته فجر اليوم !

أضافت (مروة) فى ألم :

ـ يقولون إن من قتله هو زميله فى السكن والدراسة ، (عاطف نصر) !

هنا لم أستطع السيطرة على نفسى .. فندت عنى شهقة ، لم أعرف مغزاها حتى هذه اللحظة ..

★ ★ ★

٢ ـ العشـــاء الأخيـــر ..

لم أسمع عنه إلا من (شيماء) ..

و (شيماء) زميلة دراسة حازت بجدارة لقب (رويتر) ، لأنها وكالة أنباء متنقلة ، تعرف كل طلبة الجامعة فردًا فردًا ، ولا أراها حتى تهرع إلىّ مشيرة نحو شخص أراه لأول مرة فى حياتى هاتفة :

ـ هل رأيت ؟! هذا فلان الذى حدثتك عنه من قبل .

أو ...

ـ انظرى .. إنها علاقة .. لقد فسخت خطوبتها بالأمس ، كما توقعت تمامًا ..

ولا يتوقف لسانها عن الثرثرة بأخبار عن من أعرف ومن لا أعرف ، دون أن أستطيع إيقافها ، حتى لو تشاغلت متظاهرة بمراجعة محاضرة مهمة ، أو بالشرود ، أو حتى بشرب الكولا حتى توشك أمعائى على الانفجار !

وعندما يفيض بى الكيل ، وأكاد أصرخ فى وجهها ، أراها تنظر نحو صديقة أخرى ، وتستأذن منى قائلة :

ـ سنكمل حديثنا لاحقًا !

وتهرع نحو تلك الصديقة لتنفث سمومها فى أذنيها !

(وليد يسرى) ..

ماذا قالت عنه (شيماء) ؟!

لا أذكر الكثير ، إنه لم يظهر سوى مرة واحدة تقريبًا حتى إن ملامحه قد ضاعت من سجل ذاكرتى ، نعم .. هو طالب فى كلية الطب ، فى السنة النهائية (البكالوريوس) على ما أتذكر ، تعيش أسرته ـ حيث يعمل والده ـ خارج البلاد ، ويسكن فى شقة مشتركة مع زميله (عاطف نصر) الذى لم أره من قبل .. معلومات قليلة للغاية ، ولكن مهلاً ..

إننى أذكر مقاطع أخرى من حديث (شيماء) :

ـ هل تصدقين أنه متشاجر مع أسرته بسبب فتاة يحبها ؟!

ـ إنه يريد خطبتها ..

ـ .. لكن والده رفض لعدم التكافؤ الاجتماعى ..

ـ ليتها كانت جميلة .. لكنى لا أعرف ما الذى جذبه إليها !

أستطيع ـ بحاستى السادسة كصحفية مبتدئة ـ أن أتوقع قصة مثيرة خلف هذا المانشيت الصحفى الجذاب ..

طالب يلقى حتفه على يد زميله فى الدراسة والسكن !

إنها فكرة (مروة) ، ولكن من سيدرى ؟!

ثم إن (مروة) و (رحاب) غارقتان تمامًا فى تيار الحزن العام الذى يسود أرجاء الجامعة ، ولن تمدنى إحداهما بأية تفاصيل ..

إننى فى حاجة لمعرفة كل ملابسات الحادث ، وأدق التفاصيل عن أبطاله ، ولم يتأتى هذا إلا بمعاينتى الشخصية لمسرح الجريمة ..

ولكن .. من أين لى بمعرفة العنوان ؟!

ماذا ؟! أنا جافة المشاعر ؟!

معذرة يا أصدقائى ، إن الصحافة مهنة بلا قلب ، ويشهد اللّه كم حزنت وتألمت ، لكن الصحفى الناجح يضطر لتجميد أحاسيسه ـ بصفة مؤقتة ـ قبل أن يسبقه غيره لقصة .. قد تكون مدهشة ، ثم يكون لديه متسع من الوقت فيما بعد للحزن والألم ..

المشكلة الأساسية كانت فى الحصول على عنوان الشقة ..

من يستطيع أن يحصل عليه ؟!

وعرفت الإجابة ، عندما رأيت (شيماء) ـ الشهيرة بـ (رويتر) ـ قادمة من بعيد ..

★ ★ ★

فى عالم الصحافة مثال شهير يضربونه للتفرقة بين الخبر العادى والخبر الصحفى .

فعندما يعض كلب رجلاً ، فهذا خبر عادى .. لكن أن يعض رجل كلبًا ، فهذا خبر صحفى ! والمعنى الواضح هو حتمية أن يحوى الخبر الصحفى قدرًا من الغرابة والمفاجأة ، التى تجذب القارئ من تلابيبه ، فيتأثر وينفعل ويتفاعل مع الخبر ..

هذا ما كنت أفكر فيه وأنا فى طريقى لموقع الحدث ، شاعرة بأن هذا الخبر سيكون ضربة صحفية رائعة ، أو لعله كان حماس المبتدئين .

لن أعرف أبدًا ..

★ ★ ★

الجماهير الغفيرة تلتف دومًا حول موقع الحادث !

النظرات التى يملؤها الفضول ، الهمهمات المنخفضة ، مصمصة الشفاه ، الرءوس الشاخصة نحو شرفة الشقة التى وقع فيها ما وقع ، ورجال الأمن يصوغون طوقًا أمنيًا لا يفكر أحد فى اختراقه ..

مفردات تكررت كثيرًا فى الحوادث التى تابعتها خلال فترة عملى القصيرة ، ولكن لأنها كانت المرة الأولى ، فقد انتبهت فجأة لأمر كان غائبًا عن ذهنى تمامًا ..

رجال الأمن !

سيمنعوننى بالتأكيد من الاقتراب .. هذا إذا ما نجحت فى اختراق هذا الحشد البشرى الهائل أصلاً .. ولسنا فى أحد أفلام الحركة البوليسية حتى أنجح فى التسلل دون أن يلتفت إلىّ أحد .. فأصعد للشقة وأتفحصها شبرًا شبرًا دون أن ينتبه إلىّ أحد ، ثم أهبط وقد حصلت على دليل الإدانة ، وتنفجر الشقة بمجرّد مغادرتى إياها !

ما العمل إذن ؟!

هل سأعود أدراجى بخفّى حنين ؟!

كلا .. هناك حتمًا ثغرة ما .. ولكن أين ؟!

ها هى ذى .. إنها سيارة الشرطة الخاصة بالرائد (هشام) ، إنه هنا إذن !

نعم .. لا يمكننى أن أخطئ فى رقمها ، فذاكرتى الرقمية جيدة إلى حد ما ..

سأضطر إذن للتنازل قليلاً عن قرارى الأخير الذى اتخذته بالاعتماد الكامل والشامل على نفسى .. لقد وضعه قدره ـ وحسن حظى ـ فى طريقى ، فلا مفر من أن يعاوننى ، ولكن تذكروا دومًا أننى لم أسع جاهدة وراء هذا التعاون ، لقد جاء وحده .. فما ذنبى أنا ؟!

لا بد أنهم يعاينون موقع الجريمة بالأعلى ..

فلأحاول قضاء هذا الوقت فى شىء مفيد ، التفتّ حولى ، إنه شارع جانبى هادئ فى هذا الحى الراقى ، لا أثر سوى لبنايات شاهقة حول الشارع الضيق المُكتظ بالسيارات الرابضة على جانبيه .. إنه مكان مثالى لجريمة قتل ، ففى الليل سيبدو موحشًا كالصحراء نفسها ، وتستطيع أن تقتل فيه كل يوم شخصًا دون أن يشعر بك أحد !

لأحاول أن أزاحم علّنى أرى مدخل البناية بوضوح ، فالمناكب تحجب الرؤية تمامًا عما خلفها ، لكن مساعىّ باءت كلها بالإخفاق ..

كدت أفقد أعصابى .. فالانتظار لعبة لا أجيدها ، لكن (هشام) ظهر أخيرًا وسط كوكبة من الضباط والجنود هابطين من أعلى لمدخل البناية ، وهناك شخص آخر بملابس مدنية ـ يبدو أنه وكيل النيابة ـ قد حضر للمعاينة ، وهناك كذلك كهل يرتدى جلبابًا رماديًا ويحيط رأسه بعمامة كديدن أهل الجنوب .. إنه بواب هذه البناية بكل تأكيد ..

خفت أن يمضى (هشام) بينهم فلا يرانى ، فناديته بصوت عال :

ـ (هشام) ! (هشاااااام) !

ذاب ندائى فى همهمة المزاحمين المتحلقين ـ بلا معنى ـ ولم يلتفت لى (هشام) كأنه لم يسمع شيئًا ، أو هو لم يسمع شيئًا بالفعل .. فلا أعتقد أننى أغضبته منذ وقت طويل ليتصنع عدم الاكتراث !

عدت أهتف باسمه ممدودًا أكثر ، وأن أستخدم ذراعىَ للتلويح علّنى ألفت انتباهه .. حتى ظننى الناس مجذوبة تهتف باسم ولى من الأولياء ، وفى النهاية ، انتبه الأستاذ (هشام) لى ، ورأيت أمارات الدهشة ترتسم على ملامحه الطفولية (برغم شاربه الكث الذى يخفى شفته العليا ..) ..

كنت ألهث من فرط ما بذلت من مجهود .. بينما سارع هو بالاستئذان ممن معه ، ليأتى ويرى خطيبته المجنونة التى ظهرت فجأة فى مكان عمله ..

ـ (نسرين) ! ما الذى أتى بك إلى هنا ؟!

ـ أتركنى ألتقط أنفاسى !

ـ هل تطاردك الشرطة ، أم ماذا ؟!

يحاول تصنع الظرف ، ولكن لا بأس به لو تغاضينا عن هذا العيب البسيط !

ـ كلا .. أنا هنا بشأن الحادث !

عقد ساعديه أمام صدره مقلدًا دور المحقق فى الأفلام القديمة :

ـ وما علاقتك بهذا الأمر ؟!

ـ علاقة صحفية بحتة !

ـ إ م م م .. هكذا إذن !

كان ما زال يدخن وقتها ، فأخرج من جيب سترته العلوى علبة السجائر الأمريكية ، وأشعل منها واحدة وهو يواصل دوره كممثل مبتدئ يتقمص شخصية (هاملت) :

ـ وتريدين استغلالى كمصدر معلومات إذن ؟!

ألم أقل لكم إننى لا أريد معاونة من خطيبى بالذات ؟! أعتقد أن السبب الحقيقى قد اتضح لكم الآن .. لكنى لم أرد عليه ، وحدقت فى الدخان المتصاعد من سيجارته وأنا أقول كاظمة غيظى :

ـ سأعرف كيف أجعلك تقلع عن هذه العادة المقيتة ..

هزّ كتفيه وهو ينفث دخانًا أبيض مسمومًا ، ثم قال :

ـ شاعر معاصر قال إن سجائرى (هى الوحيدة التى تمنحنى الحب بلا مقابل) !!

فهمت مغزى حديثه ، لكنى آثرت التجاهل ، حتى لا يتصاعد الأمر بيننا إلى شجار آخر من شجاراتنا التى لا تنتهى ، وقلت :

ـ لمعلوماتك ، هذا الشاعر مات متأثرًا بمرض السرطان !

أفحمه الرد ، فهزّ كتفيه ، قائلاً :

ـ ليكن .. أعترف أننى لن أتغلب عليك أبدًا فى مجال الحوار ..

ـ لا تنس أن الكلام هو حرفتى المستقبلية !

ـ حسن .. إنها حادثة قتل .. طالب يلقى حتفه على يد زميله فى الدراسة والسكن !!

أعتقد أن العنوان قد أصبح مألوفًا أكثر مما ينبغى !!

ـ لا أجهل هذا ، لكنى أبحث عن التفاصيل .

ـ ليست كثيرة ..

وأشار إلى الكهل المعمم الذى ركب إحدى سيارات الشرطة لتنطلق به بعيدًا ..

ـ (خضر) بواب العمارة هو الذى أبلغ عن الحادث فجر اليوم ، وهو الشاهد الوحيد ـ حتى الآن ـ فى القضية ، فقد رأى وسمع كل ما دار ليلة أمس بين الأصدقاء الثلاثة !

ـ الثلاثة ؟!

هز رأسه موافقًا ثم بدأ فى العد على أصابعه :

ـ (وليد يسرى) الصريع ، (عاطف) زميله فى السكن والمشتبه الأول فى قتله ، (توفيق يونس) زميلهما الثالث فى نفس السنة الدراسية ..

ـ وما علاقة هذا الأخير بالحادث ؟!

ـ روى (خضر) أنه حضر ليلة أمس مستقلاً سيارته الصغيرة لكى ...

قاطعته متسائلة :

ـ مهلاً .. هل هذه هى بداية القصة ؟!

هزّ رأسه نفيًا :

ـ كلا ..

أنهى السيجارة ثم ألقاها على الأرض وداسها بحذائه ، واستطرد إثر تنهيدة عميقة :

ـ القصة التى رواها (خضر) تبدأ بليلة عادية لا تشى بأى شىء خارج عن المألوف ، لقد هبط (عاطف) ـ كعادته كل مساء ـ لإحضار طعام العشاء من البقالة القريبة ، وألقى على (خضر) بتحية المساء المعتادة ، ثم عاد فى غضون الربع ساعة ، وفور صعوده بدأت الجلبة تتصاعد من الشقة ، وكان

من الجلى أن شجارًا تندلع نيرانه بين (عاطف) و (وليد) ، وتزداد حدته شيئًا فشيئًا ..

ـ ولماذا تشاجرا ؟!

ـ لا نعلم بعد ، فحتى هذه اللحظة لم يتم ضبط وإحضار (عاطف) و (توفيق) ، وبرغم أن الشقة تقع فى الطابق الأول إلا أن (خضر) ـ نظرًا لهرمه وثقل سمعه ـ لم يستطع تمييز ما يقولان ، ولو فعل لأفادنا كثيرًا .. المهم ، أن الشجار احتدّ حتى إن أحدهما قذف الآخر بجمجمة من التى يستخدمها طلبة كلية الطب فى دراسة التشريح ، لكنها أصابت زجاج النافذة المطلة على الشارع فهشمته ، ثم هوت على الأرض لتتحطم إلى أجزاء صغيرة ..

رأيت الزجاج المهشم بالفعل ، لكن الجموع ما زالت تحجب الرؤية عن بقايا الجمجمة المتفتتة ، بينما تابع (هشام) :

ـ لم يستمر الشجار بعدها طويلاً ، فبعد دقائق رأى (خضر) (عاطف) يهبط ثائرًا ، وهو يرغى ويزبد ، وانتظر بعدها قليلاً حتى ظهرت سيارة (توفيق) الحمراء عند آخر الشارع ، ولم يطق (عاطف) صبرًا حتى تصل إليه فهرع نحوها ، وركبها صافقًا الباب خلفه فى عنف ، وانطلقت السيارة إلى حيث لا يعلم أحد ..

صمت (هشام) ليرى إن كان نجح فى إثارة اهتمامى أم لا ، وفى الحق أنه نجح بكل جدارة ، حتى إننى هتفت له متلهفة :

ـ ثم ماذا ؟!

ـ ظل (خضر) حائرًا لمدة طويلة .. جاوزت الساعة تقريبًا ـ على حد قوله ـ لا يدرى ماذا يفعل ، وفى النهاية حسم أمره وآثر أن يصعد ليستفسر من (وليد) عما حدث ، خاصة وأن القلق قد استبد به إثر السكون المريب الذى اعترى الشقة ، ولأن النور ـ الظاهر من خلف النافذة المهشمة ـ كان لا يزال مضاءً .. صعد إلى الطابق الأول وأخذ يدق جرس الباب بلا مجيب ، فاتصل بنا طالبًا النجدة ، وعلى الفور جئنا ، وحطمنا قفل الباب ، و ...

كان من السهل علىّ الوصول للنتيجة .. فقاطعته :

ـ ووجدتم (وليد) غارقًا فى دمائه ..

ـ تمامًا .. مطعونًا بسكين حاد فى رقبته من الخلف ..

ـ يا للبشاعة !

أفزعنى مجرد تصوّر المنظر ، لكن عقلى كان يعمل دون توقف فسألت :

ـ وكيف لم يصرخ (وليد) بعد طعنة كهذه ؟!

قال (هشام) ببساطة كأنه يشرح لى طريقة عمل الكعكة الإسفنجية :

ـ لقد اخترق النصل الفقرات العنقية وأدى لقطع الحبل الشوكى ، فخر صريعًا ، قبل أن تواتيه القدرة على التفكير فى الصراخ !

أغلقت عينى لأطرد الصورة المفزعة من مخيلتى ، بينما واصل هو مردفًا :

ـ إنها قضية مكتملة الأركان تقريبًا .. لا ينقصها إلا عامل مهم واحد ..

ـ وما هو ؟!

ـ الدافع .. لماذا قتل (عاطف) (وليد) ؟!

حقًا .. هذا هو صلب القصة ، وبدونه لا تكون هناك قصة أساسًا ..

ثم برقت فى رأسى فكرة من صندوق أفكارى المجنونة ..

ـ (هشام) .. سأطلب منك شيئًا أرجو ألا ترفضه ..

ـ لن أتأخر لو كان بوسعى ..

صبغت نبرتى برقة ـ قد أستطيع من خلالها التأثير عليه ـ وأنا أقول :

ـ أريد الاطلاع على الشقة .. برفقتك بالطبع !

هل كان التعبير الذى ارتسم على وجهه هو الدهشة ؟! أم البلاهة ؟!

لا أدرى !

★ ★ ★

ـ إياك أن تلمسى شيئًا ..

حذرنى (هشام) قبل أن أخطو خطوتى الأولى إلى الداخل ، وكنت قد نجحت بالفعل فى التأثير عليه ..

ـ ستدخلين على مسئوليتى الشخصية ، وقطعًا لن ترضَىْ لى بمحاكمة عسكرية بسبب فعل أرعن كهذا !!

ـ اطمئن ، أنا متفرجة ليس أكثر ..

غمغم فى لهجة ملؤها الاستياء :

ـ هذا ما تجنيه علينا الصحافة !

تظاهرت بأنى لم أسمع ، وخطوت بقدمى داخل الشقة لتفاجئنى رائحة الدم ..

أنا أمقت رائحة الدم ، لكنى أعشق صاحبة الجلالة ..

وكل المشاق تهون فداءً لمن نحب ..

★ ★ ★

شقة متواضعة ذات أثاث بسيط للغاية ، هذا هو انطباعى الأول ..

لا يوجد فى الصالة سوى أريكة متهالكة ، وبعض المقاعد الخشبية ، وطاولة مرتفعة رصت فوقها مراجع طبية سميكة ، يحتاج المرء لقرن كامل قبل أن يستطيع إتمام قراءة أحدها من الغلاف للغلاف !

طلاء الحوائط متآكل فى غير موضع ، ولا يخلو الأمر من صور معلقة لنجوم الغناء والكرة هنا وهناك .. لكن ما يلفت النظر هو تلك اللوحة الضخمة فى صدر الصالة لهيكل الإنسان العظمى ..

كانت لوحة بالحجم الطبيعى تقريبًا ، مرسومة بدقة شديدة وحرفية عالية ، ويبدو أن صاحبها قد خاف عليها من التلف فصنع لها بروازًا مذهبًا سميكًا ..

ظللت أحدق فى اللوحة مبهورة ، حتى انتبهت لنفسى ، فانتزعت نفسى من أمامها انتزاعًا ، ومضيت أتفحص باقى الشقة ، لكن فحصى لم يتمخض عن أى جديد ..

غرف النوم الثلاث مرتبة ومنسقة ، جثة (وليد) مغطاة بملاءة خضراء على أرضية المطبخ ، وعلى المنضدة الرخامية يقبع كيسان ، يحويان العشاء الأخير الذى أحضره (عاطف) ولم يقدر له أن يؤكل !

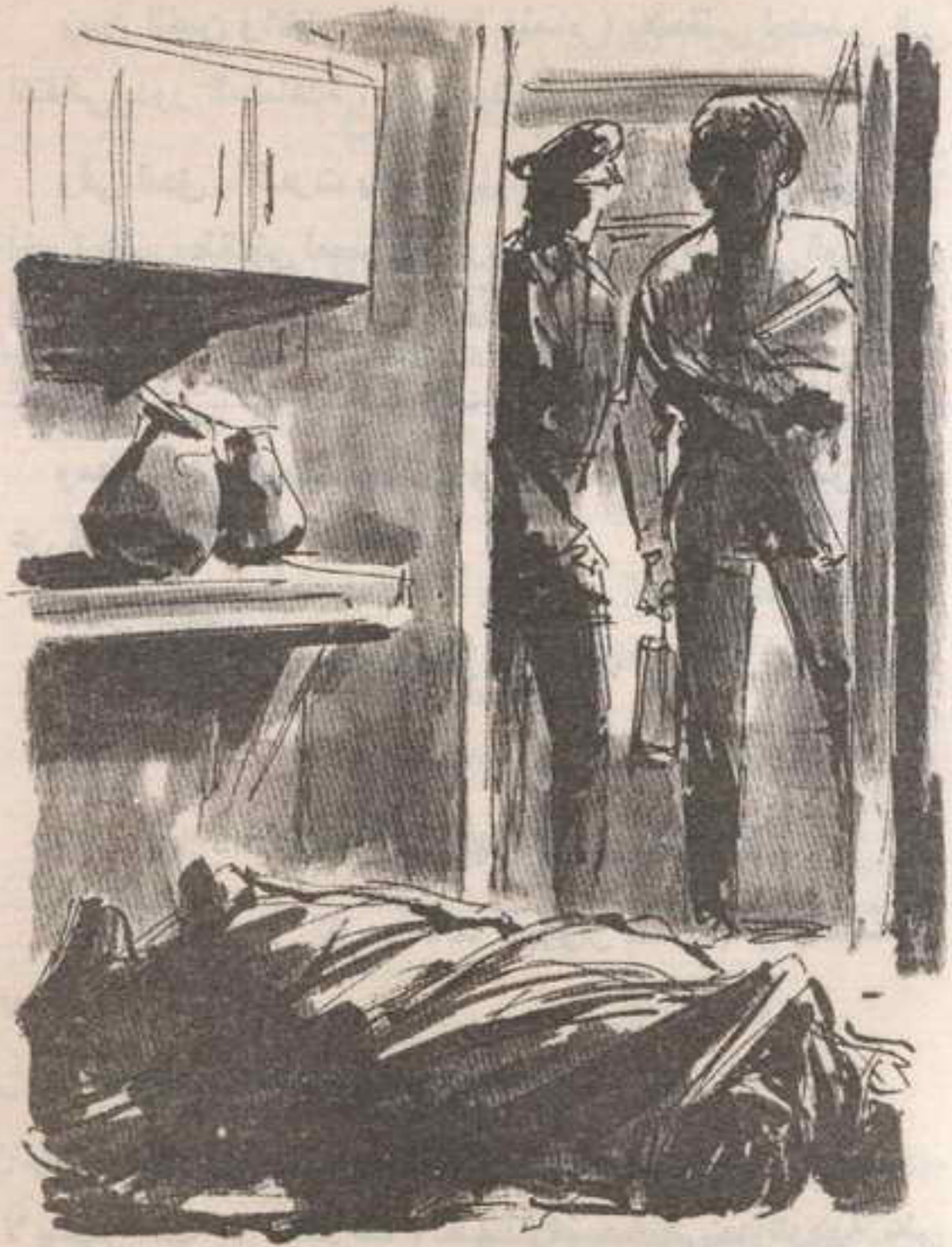

جثة (وليد) مغطاة . . بملاءة خضراء على أرضية المطبخ ، وعلى المنضدة الرخامية يقبع كيسان . .

وبين الحين والآخر ، كـان (هشـام) يلاحقنـى ليطمئـن إلـى اكتفائى بدور المشاهدة ، وبأن مبدأ عدم اللمس ما زال ساريًا ..

وفى الحق ، شعرت بخيبة أمل عظيمة ، فقد كنت أعقد أمـلاً أخيرًا على مطالعتى لمسرح الجريمة ، فى التوصل إلى المزيد من الحقـائق ، لكن كل شىء يبدو غامضًا راكدًا ، وعلىّ إذن انتظار التحقيقات وما تسفر عنه ، حتى لو سارت ببطء السلحفاة ..

ومضيت فى طريقى للخارج و (هشام) يسـألنى كمـن أنـزل عن كتفيه حملاً ثقيلاً :

ـ هل انتهيت ؟!

أكره الإجابة بقدر كراهيتى للسؤال ..

نعم ..

لا .. مهلاً .. كيف لم أنتبه لهذا لأول وهلة ؟!

كنـت أتجـه نحـو اللوحـة ذات البرواز المذهب و (هشـام) يسألنى فى توتر :

ـ ما الأمر ؟! ظننت أنك انتهيت !

إنها هناك ، فى الزاوية العلويـة اليمنى من الإطـار المذهب ، لا يظهر منها إلا الأطراف ، لكنهـا واضحـة إلى حد الرؤية على أية حال ..

(هشام) ما زال يسأل :

ـ ما الأمر يا (نسرين) ؟!

مددت يدى لألتقطها ، فهتف فى جزع :

ـ ماذا تفعلين ؟! ألم نتفق على ..

وبتر عبارته فجأة ، عندما رأى تلك الوريقة التى التقطتها ..

كانت مخبأة داخل الإطار المذهب السميك ، بحيث لا يظهر منها إلا طرفها ، ولا يراها إلا مدقق خبير ، أو سعيد الحظ ـ مثلى ..

ـ ما هذا ؟!

سألت نفسى السؤال عينه قبل أن يفعل (هشام) ، وآثرت العثـور على الإجابة بنفسى ففتحت الوريقة وشرعت أقرأ ما فيها ..

عبارة فرنسية أنيقة :

« فتش عن المرأة Chenchez la femme »

ثم الإمضاء الأكثر أناقة :

« السيد (س) » !

كانت المرة الأولى التى أقرأ فيها هذا الاسم .. لكنها أبدًا لم تكن الأخيرة ، فلم أكن أدرى أن مصيرى ومستقبلى قد يرتبطـان يومًا بهذا الاسم الغامض كالغد !

السيد (س) لأول مرة !

هل ما زلتم تذكرون ما قلت لكم عن نعت (الأول) عندما يقترن بأى اسم يسبقه ؟!

هل تذكرون رونقه الخاص ؟!

الغموض ..

الرهبة ..

الرغبة فى كشف الستار عن المجهول ؟!

لا أعتقد أن النسيان يتملكنا بهذه السرعة !

★ ★ ★

٣ ـ شئـــون عاطفيـــة ..

أحيانًا تحدث عدة أشياء مهمة فى وقت واحد ، لا يفصل بينها إلا دقائق .. وأحيانًا ثوان معدودة ، كما فى هذه الحالة ..

فأولاً : عثرت على هذه الوريقة التى تحمل توقيع السيد (س) ..

وثانيًا : علم (هشام) ـ باللاسلكى الخاص به ـ أنه تم القبض على (عاطف نصر) و (توفيق يونس) ، وأنهما فى طريقهما الآن لمبنى المباحث ..

وثالثًا : ظهرت (لمياء الفيل) فى مسرح الجريمة !

★ ★ ★

ضغط (هشام) زر اللاسلكى ـ فور تلقيه الإشارة بالقبض على المشتبه فيهما ـ وقربه من فمه مغمغمًا بصوت سمعته بصعوبة :

ـ علم ، سأكون هناك خلال النصف ساعة على الأكثر ..

ونحى اللاسلكى جانبًا ، وقلب الوريقة التى عثرت عليها بين أصابعه قائلاً بحاجبين منعقدين :

ـ ما هذه الدعابة السمجة ؟!

لم يعجبنى تعليقه الذى هون من شأن اكتشافى ، وهوى بقيمته الحقيقية فى نظرى إلى الحضيض ، فهززت كتفىّ مقلدة أسلوبه اللامبالى وأنا أقول :

ـ ومن أدراك ؟! قد لا تكون كذلك !

ـ لا يمكن إلا أن تكون كذلك !

ثم حدق فيها وهو يردف كأنه يفكر بصوت عال :

ـ عبارة نابليون الشهيرة ، مع إمضاء ذى حرف واحد !

عدت أهز كتفى ـ ويا لها من حركة مستفزة حقًا ! ـ وأنا أقول :

ـ ربما كان هذا هو الدافع الذى تبحث عنه ..

أشاح بوجهه هاتفًا :

ـ أى دافع تتحدثين عنه ؟! إنها ورقة عثرت عليها ـ بمحض الصدفة البحتة ـ مخبأة فى إطار لوحة طبية ، لا نعلم من الذى أرسلها ولا إلى من ..

حاولت التشبث برأيى قائلة فى عناد :

ـ إنه خيط نستطيع تتبعه على أى حال ..

هزّ كتفيه ـ العادة الثانية التىَ سأجعله يقلع عنها ـ قائلاً فى استخفاف :

ـ خيط أوهى من شعرة مشدودة !

أحيانًا يصبح العناد فضيلة ، قلت :

ـ تندلع النيران من مستصغر الشرر !

ـ ومن أدرانا من هو هذا السيد (س) ؟!

بحماس ـ مبالغ فيه بعض الشىء ـ قلت :

ـ ربما كان شاهدًا يأبى الظهور علانية ، أو لعله شخص وضع قدراته فى خدمة العدالة والشرطة ، أو ...

من الواضح أن الكيل قد فاض به ، وإلا لما أعطانى ظهره مغادرًا ، وهو يهتف فى تهكم .. مبالغ فيه بعض الشىء :

ـ لقد أفسدت الروايات البوليسية مراكز التفكير المنطقى فى عقلك !

هل أهاننى ؟! لا أظن ..

لكنى طبعًا لم أصمت ، هرعت خلفه هابطة الدرجات المؤدية للدور الأرضى وأنا أهتف به فى نبرة عالية .. مبالغ فيها بعض الشىء :

ـ ليس بقدر ما أفسدت الواقعية خيالك !

لحقت بـه عند مدخل البنايـة ، ووجدتـه يضـع الوريقـة فـى راحتى ، قائلاً :

ـ فلتأخذيها .. إنها بلا قيمة تقريبًا ..

وهنا تذكرت شيئًا ما ..

* * *

(هل تصدقين أنه متشاجر مع أسرته بسبب فتاة يحبها ؟!)

من منا لا تحلم بذلك الفارس الذى يبيع الدنيا ليشترى فيروز عينيها ؟!

من ؟!

* * *

لماذا أحس أن (هشام) يخفى عنى شيئًا ؟!

ـ إنها بلا قيمـة حقًا لو نسينا ـ أو تناسينا ـ شئون (وليد) العاطفية ..

استطعت إثارة اهتمامه ، وتنبيه مراكز الاستشعار فى رأسه ، فضيق عينيه منتظرًا أن أكمل ما لدى ..

عقدت ساعدى وأنا أقول ـ بثقة مبالغ فيها بعض الشىء :

ـ (وليد) الذى تشاجر مع أهله بسبب فتاة يحبها !

نجح الهجوم المباغت وأصاب قلب الهدف ، فقد قال (هشام) فى هدوء :

ـ يبدو أنك تعرفين أكثر من اللازم ..

رسمت ابتسامة ظافرة على شفتى ، ثم قلت :

ـ تلميذة حضرة الرائد الهمام ..

عمومًا ليس فى جعبتـى الكثير .. ولـولا تلك الرسـائل التى عثرنا عليها فى أحد أدراج مكتب القتيل لما عرفنا شيئًا البتة ..

ـ سأرضى بالقليل ..

ـ لا نعلم شيئًا عن كنـه وأسبـاب ونتـائج الخـلاف الأسـرى ، الذى نشب بين الابـن وأبيـه ، برغم بعدهمـا آلاف الأميـال عن بعضهما ، إلا أنه كان نتيجة لرفض الوالد طلب الابن أن يخطب فتاة تقل عنهم بمراحل مركزًا اجتماعيًا وأسريًا ..

ـ ماذا عن الفتاة ؟!

ـ ليس لدينا أكثر من اسمها الأول .. (لمياء) ..

بداية لا بأس بها ! تابع (هشام) :

ـ ستتوفر لدىّ المعلومات كاملة تقريبًا فور وصول الأب فـى طائرة الساعة الرابعة ، أى بعد ساعة على الأكثر ..

ـ ولا تنس (عاطف) و (توفيق) ..

ضرب جبهته براحته هاتفًا :

ـ يا إلهى ! لقد تأخرت بالفعل .. لا بد أن أذهب الآن .

قالها وهو يركب السيارة بالفعل ، وعندما أدار المحرك التفت نحوى ، قائلاً :

ـ وسأوصلك فى طريقى للمنزل !

هززت رأسى نفيًا وأنا أقول ملوحة بالوريقة المطوية :

ـ كلا .. سأبقى هنا ، فربما توصلت لخيط جديد ..

ـ هذا لو اتفقنا على وجود خيط قديم !

ـ الخلاف فى الرأى .....

أكمل هو :

ـ لا يفسد للود قضية ! ربّاه ! لماذا وقعت فى غرام فتاة مجنونة ؟!

أحيانًا يبدو (هشام) رقيقًا عاطفيًا ، ودائمًا حيث لا أتوقع منه هذا ! لكنى أحبه فى كل الأحوال !

ـ سأطلب منك خدمة أخيرة !

ـ مرينى ..

ـ اتصل بوالدى فى المستشفى وقل له إننى سأتأخر فى العودة قليلاً ، لكنى سأعود قبل حلول الظلام !

مطّ شفتيه ، قائلاً :

ـ فتاة مدللة !

وانطلق بالسيارة تاركًا إياى أسائل نفسى : هل يتعمد (هشام) إهانتى من خلال دعاباته البريئة ؟!

وقطع علىّ أفكارى ـ السوداء ـ صراخ هستيرى نسائى ..

كان هناك ثلاثة أفراد يحملون محفة مسجى عليها جسد القتيل المغطى بالملاءة الخضراء ، هبطوا بها من الشقة استعدادًا لنقله للمشرحة .. أما الصراخ ، فقد كان مصدره فتاة شقت جموع المزاحمين وهى تصرخ :

ـ (ولييييد) !

وأخذ الواقفون يحاولون تهدئتها وإبعادها عن مرأى الجثة ، ولم تعدم نساءً يربتن على كتفها وينصحنها بالصبر والسلوان ..

ولم أكن فى حاجة للكثير من الذكاء والفطنة لأستنتج أن هذه الفتاة هى (لمياء) ..

وعرفت أننى سعيدة الحظ فى هذا اليوم ..

إلى حد لم أصدقه ..

★ ★ ★

قالت وهى ترشف من عصير الليمون :

ـ (لمياء الفيل) .. هذا هو اسمى ..

عيناها حمراوان من فرط البكاء ، ووجهها شاحب اللون من أثر لوعة الفراق ..

لم تكن جميلة كما وصفتها (رويتر) ، فشعرها خشن ، وعيناها ضيقتان غارقتان خلف أنفها الطويل المدبب ، وفمها واسع الشفتين رفيعهما ، لكن كل هذا لم يسترع انتباهى وقتها ، فكل ما كنت أفكر فيه هو السرّ المختفى وراءها ..

كنت قد قدمت لها نفسى باعتبارى الملازم أول (نسرين الجبالى) من المباحث النسائية ، لكنى متخفية نظرًا لسرية المهمة وخطورتها !!

(يبدو أنكم بدأتم فى الاعتياد معى على هذه المغامرات المجنونة غير المأمونة العواقب .. لكنى ما زلت مصرة على أنه كلما غامرت أكثر ، كلما زادت فرصة الربح أكثر ..) .. نظرت إلى عينيها ـ اللتين استحالتا إلى كأسين من الدم ـ قائلة فى رصانة ضابطة شرطة فى مهمة حساسة :

ـ كنت تحبينه !

ارتسم تعبير يمتزج فيه ألم الذكريات بأحزان الفقد على سحنتها ، وهى تقول :

ـ لحد العشق .. وهو أيضًا ، كان سيتقدم لخطبتى فى الأسبوع المقبل ..

ـ دون رضاء أهله !

نظرت إلى قدميها وهى تقول فى ندم :

ـ حاولت بشتى الطرق إقناعه بتأجيل المسألة حتى يقابل والده ويطلب رضاه ، أو على الأقل حتى يرانى الوالد لعله يقتنع ويغير رأيه ، لكنه أصر !

سألتها فى حدة لم أتصنعها :

ـ وماذا عن أسرتك ؟! كيف يوافقون على أمر كهذا ؟!

فى انكسار ـ آلمنى وقتها ـ قالت :

ـ أبى متوفٍّ منذ أعوام سبعة ، وأمى ـ منذ وفاته ـ لا تكاد تجد لنا قوت يومنا ، أنا وستٌّ من الشقيقات الصغار !!

شعرت نحوها بشفقة هائلة ، ألجمت لسانى ، بينما تابعت هى والدموع تترقرق فى مقلتيها كفيضان يوشك على الانهمار :

ـ لقد ظهر (وليد) فى حياتى كبقعة ضوء بددت ظلمة اليأس الحالكة ، تعرفنا فى المستشفى الجامعى حيث أعمل ممرضة منذ عامين ، وألّفت المشاعر النبيلة بين قلبينا فتعاهدنا على الزواج .. ولكن .....

كانت تجاهد لئلا تبكى ، لكن دمعة خدعتها وفرت منسابة على وجنتها الشاحبة ، بينما آثرت أنا سؤالها عن أمر آخر :

ـ وماذا عن (عاطف) و (توفيق) ؟!

فى ضيق بالغ سألت :

ـ ماذا عنهما ؟!

قلت فى حزم أجدت أداءه :

ـ أنا التى أسأل ..

قالت وفى عينيها ترتسم كراهية عميقة :

ـ صديقاه .. لكنهم كانوا دائمًا على خلاف ..

ـ من أى نوع ؟!

ـ لا أدرى تحديدًا ، فلم أكن أقحم نفسى فى هذه الشئون ..

سألت وأنا أناورها لأنال منها اعترافًا محددًا :

ـ خلاف بشأن ما بينكما مثلاً ؟!

لم ترد على الفور ، لكنها قالت فى النهاية :

ـ هذا صحيح .. لم أكن على وفاق مع أى منهما ، و (عاطف) بالذات كان بينى وبينه ما صنع الحداد ..

وازدادت الكراهية فى عينيها وضوحًا وهى تضيف :

ـ لم أحب نظراته لى أبدًا ..

ولم تزد حرفًا ، تاركة إياى لأفهم عبارتها كما أريد ..

★ ★ ★

عدت إلى المنزل قبل أن يخيم الظلام .. وكما توقعت ، لم أجد أبى ..

ليلة أخرى إذن سأقضيها بمفردى ، فمعنى عدم عودته للآن ، أنه سيبقى فى المستشفى حتى مطلع الفجر منشغلاً فى إحدى عملياته الجراحية أو أبحاثه التى لا تحتمل التأجيل أو ... أو ... دائمًا يجد الرجال ـ آباءً كانوا أو أزواجًا ـ الأعذار المناسبة !

أعددت لنفسى بعض الطعام .. وحاولت أن أذاكر قليلاً ، لكن ذهنى كان فى وادٍ آخر ..

كان تفكيرى كله متركزًا فى القضية التى ما زال يملؤها الغموض ..

لن أستطع كتابة حرف واحد لتقديمه للجريدة .. فهناك قاعدة صحفية أخرى سنذكرها معًا دائمًا ، علامات الاستفهام الخمس المقدسة ..

ماذا ؟! أين ؟! متى ؟! كيف ؟! لماذا ؟!

وحتى يكون الخبر الصحفى خبرًا صحفيًا ، لا بد أن يحوى إجابات محددة على هذه الأسئلة الخمسة ، ومازالت إجابة السؤال الأخير ناقصة ..

لماذا ؟!

الدافع كما يسميه (هشام) ما زال غائبًا ، لكن ترى ، هل اعترف (عاطف) و (توفيق) بفعلتهما وبدوافعهما الحقيقية ؟!

أقاوم رغبتى الشديدة فى الاتصال بـ (هشام) .. سيتكلم هو بالتأكيد لو أن هناك ما يستحق ..

ثم .. هناك هذه الوريقة التى تحض على التفتيش عن المرأة ، مع الإمضاء الذى يثير خيالى ويحلق به بعيدًا ..

السيد (س) ..

ترى من هو ؟! وكيف خبأ الوريقة فى إطار اللوحة ؟! وما علاقته بالحادث ؟! وهل حقًا أن مفتاح اللغز يكمن فى عبارة (فتش عن المرأة) ؟!

أم أن الأمر لا يعدو كونه دعابة سمجة ؟!

وهل المرأة المقصودة هى (لمياء) ؟! وماذا يمكن أن تكون علاقتها بالجريمة ؟!

بحر من الحيرة بلا شطآن ..

حاولت أن أتابع برامج التلفزيون ، علها تشغلنى عن هذه الأسئلة ، لكنها كانت سخيفة ولا تطاق ، كل ما أرجوه هو ألا أحطم شاشته يومًا ، فى خضم غيظى من فتيات الإعلانات المترنحات على أنغام الموسيقى الهابطة !

القراءة إذن هى ملاذى الأخير ..

ماذا لدينا هنا ؟! روايات رومانسية ؟! كلا .. لقد تجاوزت هذه المرحلة ! الكوميديا الإلهية ؟! عذرًا أيها الشاعر الإيطالى المخضرم (دانتى) .. فلست فى حالة الصفاء الذهنى المناسب لأحلق معك فى سماوات الفردوس والجحيم ! (هاملت) ؟! أعشقها لكنى حفظتها عن ظهر قلب سطرًا سطرًا ، والشكر للعبقرية الشكسبيرية ! (ألف ليلة وليلة) ؟! لِمَ لا ؟! ولكن .. كلا .. ربما نادى (شهريار) (مسرور) ليقطع رأسى لو شردت قليلاً عن (شهرزاد) وهى تروى لمولاها السعيد ذى الرأى الرشيد حكاياها المسلية !

أحتاج لشىء خفيف سهل الهضم فكريًا ، ومنسجم مع حالتى المزاجية هذه ..

أظنكم فهمتم مطلبى ..

لامفر من إحدى الروايات البوليسية ، (هولمز) أو (لوبين) أو ..

أعتقد أن (أرسين لوبين) سيفى بالغرض ..

أنا أحب هذا اللص الشريف .. أو الظريف ، أو المحتال أو المختال ، ولعلها المرة الأولى فى تاريخ الأدب التى يستطيع فيها لص أن يحوز إعجابنا ويخلب ألبابنا ، ونحن نتابع مغامراته الشيقة ذات الإيقاع السريع ، بل ويجعلنا نتعاطف معه أحيانًا ، وهذا يعنى مكانًا مرموقًا فى مملكة الخيال لصانعه ومبدعه (موريس لبلان) !

ورن جرس الهاتف قبل أن أنهى الصفحة الأولى .. وكان المتحدث هو الدكتور (فاروق) والدى العزيز .. اعتذر لى عن التأخير وسألنى الأسئلة الروتينية المعتادة عن صحتى وأحوالى .. إلخ . ووعدنى بالمجىء فور إنهائه العملية الجراحية العاجلة ، وأغلق السماعة بسرعة ، إذ دخل عليه التومرجى ينبئه بأن غرفة العمليات جاهزة !

يعجبنى فى أبى تفانيه فى عمله ، وأعتقد أننى ورثت عنه هذه الصفة ، فحتى الآن لم أستطع أن أطرد قضية مقتل (وليد يسرى) من مخيلتى !

وعدت أعدو بعينى فوق السطور ، وعند نهاية الصفحة الثانية رن جرس الهاتف مرة أخرى :

ـ (هشام) ؟! خبرنى .. هل من جديد ؟!

ـ ظننت وراء لهفتك هذه افتقادك إياى ..

ـ لا تكن سخيفًا !

ـ حسن .. لقد أنكر المتهمان ارتكابهما للجريمة !

ـ حقًا ؟!

ـ بل أنكرا معرفتهما بمقتل زميلهما حتى لحظة القبض عليهما ..

ـ لكن شهادة البواب ... أعنى ...

ـ أعرف ما تريدين قوله ، لكن (عاطف) قال إنها كانت مشادة عادية انتهت بتركه المنزل ، وأن (توفيق) حضر ليأخذه إثر مكالمة هاتفية طلب منه فيها ذلك بعد الشجار ! حتى لا يتفاقم الأمر بينهما ، وأيد (توفيق) حديثه حرفيًا ..

ـ إن هذا يعنى ..

ـ هذا لا يعنى شيئًا ، إن إنكارهما للأمر كان متوقعًا ..

ـ وماذا عن (لمياء) ؟!

ـ لم يذكر أحد منهما اسمها ، لكن النيابة ستستدعيها غدًا للإدلاء بشهادتها ..

ـ (هشام) .. أريد رؤية (عاطف) و (توفيق) !

ـ إنهما محبوسان الآن على ذمة التحقيق ، و ...

ـ أريد رؤيتهما غدًا .. أرجوك ..

ـ (بعد صمت قصير) .. لا أدرى ماذا أقول .. لكنى لن أعدك بأكثر من بذل كل جهدى ..

ـ أنا أعرف أنك ستستطيع فعلها !

ـ مجنونة !

لا يمر بيننا حديث إلا ويذكرنى بهذا الأمر .. كأننى أنساه أصلاً !

(لوبين) مرة أخرى .. ولعلكم تستطيعون استنتاج ما حدث عند نهاية الصفحة الثالثة ، لقد رن جرس الهاتف للمرة الثالثة !

زفرت فى ضيق .. فهذه المرة لن يخرج المتحدث عن (رحاب) أو (مروة) ..

ألم أكن معهما فى الجامعة صباحًا ؟!

ـ آلو ..

ـ آلو ..

صوت غريب ، لم أسمعه من قبل :

ـ هل أنت الآنسة (نسرين الجبالى) ؟!

صوت رجل غليظ أجش ، كأنه يتعمد تغيير نبرة صوته :

ـ أنا هى .. ولكن من أنت ؟!

وكان آخر شىء توقعته أن يقول الصوت :

ـ أنا السيد (س) !!

ـ !!!!

★ ★ ★

ـ هل أنت الآنسة (نسرين الجبالى) ؟!

صوت رجل غليظ أجش ، كأنه يعتمد تغيير نبرة صوته :

ـ أنا هى . . ولكن من أنت ؟! . .

٤ ـ شـخص .. لا أعرفـــه ..

السيد (س) على الهاتف لأول مرة ..

مهما أوتيت من براعة أدبية ، وبلاغة لغوية ، ومن قدرة على التعبير بالكلمات ، فلن أستطيع أن أصف شعورى لحظتها ..

هل تعرفون شعور الأعمى الذى يمسك بصندوق من ذهب ، فى داخله ثعبان سام ، ولكن لأنه أعمى فهو لا يرى هذا ولا ذاك ؟!

أعلم أنه تشبيه غريب بعض الشىء ، لكنه سيفى بالغرض على أية حال ..

ولأنى كنت فى خضم أمواج مشاعرى المتلاطمة ، أرى من الأفضل أن أنقل لكم نص المكالمة دون التدخل بأى تعليق إلا عند نهايتها ..

فقط ..

★ ★ ★

أنا : (بدهشة عارمة) مَن ؟!

الصوت : السيد (س) .. أظنك تعرفيننى !

أنا : (متوجسة) كفى دعابات سمجة ! سأغلق السماعة !

الصوت : هل هذا رأيك ؟! أم رأى الرائد (هشام) ؟!

أنا : ..... !

الصوت : أعتقد أننا نستطيع أن نتفاهم ..

أنا : من أنت ؟!

الصوت : أخبرتك مرتين !

أنا : هذه ليست إجابة ..

الصوت : لا أعتقد أن لديك أفضل منها .. حاليًا على الأقل !

أنا : وماذا تريد ؟!

الصوت : أولاً ، أن أنقل إليك تهنئاتى القلبية ..

أنا : لماذا ؟!

الصوت : لأنك ـ ببراعة أحسدك عليها ـ كنت أول من عثرت على رسالتى !

أنا : لكنها لم تدلنى على شىء !

الصوت : أنت تبخسينها حقها ! فلولاها لما فكرت فى لقاء (لمياء) !

أنا : (فى غضب) هل تتجسس علىَّ ؟!

الصوت : الحلم سيد الأخلاق ، أنا ـ يا آنستى ـ لا أتجسس ، أنا محض إنسان سعيد الحظ ـ مثلك تمامًا ـ تضع الأقدار أمامى

كل مسببات المعرفة ، وبالمناسبة ، أنا مثلك تمامًا أعشق (أرسين لوبين) !

أنا : (فى ارتباك وهلع) كيف عرفت أننى ؟!

الصوت : سنتحدث عن هذا فيما بعد ، لدينا الآن ما هو أهم ..

أنا : .....

الصوت : لدىّ : سؤال محدد ، لا أعتقد أن أحدًا سيسأله ، مع أنه قد يحوى مفتاح اللغز ..

أنا : (مهتمة) أى سؤال ؟!

الصوت : لماذا قذف أحدهما الآخر بالجمجمة ؟!

أنا : كان شجارًا احتد بينهما حتى .....

الصوت : إذا توصلت للإجابة الصحيحة فأرسليها دون عنوان إلى السيد (س) .. ولا تنسى شعار برنامجنا (فتش عن المرأة) !

أنا : لكنى لم أجذل لـ (لمياء) علاقة بـ ..

الصوت : أول الخطايا البشرية كانت بسبب امرأة .. هذا هو الدافع الحقيقى وراء كل جرائم الدنيا !

أنا : لكن ....

الصوت : بيب .. لقد انتهى وقت برنامجنا ، عذرًا آنستى الصغيرة ، لكن لا تخشى شيئًا سأكون دائمًا موجودًا عندما تحتاجين إلىّ ..

أنا : انتظر .. أريد أ....

الصوت : تشاو...

(صوت غلق السماعة ، مع نغمة متقطعة معناها انقطاع الخط) ..

★ ★ ★

إنه يعرف كل شىء ..

يسمعنى وأنا أحدث (هشام) ، و (لمياء) ، ويرانى أقرأ رواية لـ (أرسين لوبين) وأنا وحيدة بين جدران المنزل ، قبل أن أرد على نداء الهاتف ..

حتى لو كانت نكتة ، فهى نكتة مرعبة ..

ولازمنى القلق والأرق ليلتها ، فنمت نومًا سيئًا متقطعًا مفعمًا بالكوابيس السوداء ..

لقد ظهر لى السيد (س) أكثر من مرة حتى فى أثناء النوم ، وأحسست بالفعل أنه يراقبنى ، وقفزت ـ فى رعب ـ من فوق

السرير أكثر من مرة ، كلما تناهى إلى مسامعى أدنى صوت من المطبخ أو الصالة أو حتى من خارج المنزل كله !

وكدت ليلتها أصاب بجنون فعلى ..

هل يتخيل أحدكم وجود شخص لا يعرف عنه شيئًا ، بينما هو فى الحقيقة أقرب إليه من حبل الوريد ؟! يحصى عليه أنفاسه ؟! ويتغلغل إلى دماء شرايينه ؟! ويقتحم عليه انعزاله عن كل البشر ؟!

كان التفكير قد أتعبنى فى أمور أعرف أننى لن أجد لها حلولاً مقنعة .. لن أعرف أبدًا من هذا السيد (س) الذى يعرف عنى وعن القضية كل شىء ، لكنه يصر على اللهو بنا ، كأننا عرائس ماريونيت يحرك خيوطها كيف يشاء ، ولن أعرف ما صلته بى وبالقضية ، ولا كيف عرف كل ما عرفه ..

كل الأسئلة مصيرها الحفظ فى أرشيف (لا أعلم) !

ولم أجد بدًا من توجيه طاقتى الفكرية فى مسار آخر ، (وليد) و (لمياء) ، و (عاطف) و (توفيق) اللذين سأراهما غدًا إن شاء الله ، وتلك الخيوط التى أعطانى إياها السيد (س) ..

لماذا قذف أحدهما الآخر بالجمجمة ؟!

لابد إذن أن نعلم أسباب الشجار !

ما علاقة (لمياء) ـ المرأة الوحيدة حتى الآن فى القضية ـ بالأمر ؟!

استغرقت فى محاولة الربط بينها وبين جريمة القتل ، على ضوء ما رأيت وسمعت ، ومحاولة جمع شتات الأفكار المتفرقة ، حتى برقت فى تلافيف عقلى فكرة ما ..

★ ★ ★

(لم أحب نظراته لى أبدًا !)

(أولى الخطايا البشرية كانت بسبب امرأة) !

(لكن (عاطف) قال إنها مشادة عادية !) !

★ ★ ★

الأرض البكر ..

أرض البدايات المستحيلة ..

الأشجار خضراء باسقة لم تلوثها أيدى البشر ، البحر أزرق بلون السماء الصافية ، الريح تهب ، والندى يقطر ، والغزلان تعدو ، والعصافير تشدو ، والينابيع تتفجر بأنهار الفطرة النبيلة ..

لم يكن هناك سوى (آدم) أبو البشر ، وأمنا (حواء) ، وأربعة من الأبناء ..

ستة من بنى الإنسان تعمر بهم الدنيا من نقطة الصفر حتى ملايين الملايين ..

ثم ..

تولد الخطيئة الأولى لتدنس طهر الأرض البيضاء ..

تنافسا فى حبها ، وتقبل القربان من (هابيل) ، فثارت الشياطين الساكنة صدر الأخ (قابيل) بالغضب والحقد والحسد ، وأضمر الانتقام لهزيمته النكراء ..

حمل حجرًا ، وهوى به فوق رأس أخيه النائم فى اطمئنان ، تحت ظل شجرة وارفة الظلال وسالت الدماء ـ لأول مرة فى التاريخ ـ لتتشربها التربة العطشى ، والتى ظلت عطشى برغم أطنان الدماء التى سالت عبر الأجيال المتعاقبة ..

كانت أولى الخطايا البشرية على الأرض ..

(قابيل) يقتل أخاه (هابيل) ..

من أجل امرأة !

★ ★ ★

وجاء صباح الغد ، ولم يكن لدىّ سوى محاضرة واحدة أنهيتها مبكرًا ، ثم اتجهت من فورى إلى مبنى المباحث ، وأنا أرتب أفكارى ..

سأقابل (عاطف نصر) و (توفيق يونس) بأى طريقة ، فلو فشل (هشام) ـ عمدًا أو دون عمد ـ فى ترتيب المقابلة ، فسأقابلهما بطلب رسمى أقدمه بصفتى محررة حوادث فى صحيفة (الأربعاء) .. وعقدت العزم على إخفاء أمر محادثة السيد (س) الهاتفية بالأمس عن (هشام) ، فهو لن يصدق شيئًا ، وربما شك فى أن الأمر برمته ليس إلا نسجًا من خيالى البوليسى الواسع ، وحتى لو صدقنى ، فماذا بوسعه أن يفعل ؟!

إنه لن يحمينى من شىء ، فالسيد (س) لا يزمع أن يضرنى وإلا لفعلها ، ولن يستطيع بالتأكيد أن يتوصل إلى هوية شخص يعرف أننى اقرأ (لوبين) وحدى فى المنزل !

سيعرف السيد (س) كيف يختفى ويمحو آثار وجوده جيدًا !

نعم .. سأخفى الأمر مؤقتًا على الأقل !

أما بخصوص الحادث ، فكنت قد توصلت إلى فكرة محددة ، تلعب (لمياء) فيها دورًا رئيسيًا ، بنيتها على أساس الفكرة القديمة ..

أولى الخطايا البشرية على الأرض كانت بسبب امرأة !

والفكرة باختصار :

لقد قتل (عاطف) (وليد) لأنهما تنافسا على (لمياء) !!

هذا هو الحل المنطقى الوحيد المقبول ، برغم غرابته وقلة الأدلة عليه ، ولكن لنتصور معًا سيناريو ما حدث :

ـ كان (عاطف) يرفض فكرة أن يخطب (وليد) ممرضة رقيقة الحال قليلة الجمال ، وحاول بشتّى الطرق إثناء صديقه عن عزمه ، لكن (وليد) أبى وأصر على موقفه ، فآثر (عاطف) أن يظهر له عدم لياقتها له محاولاً التودد إليها بالنظرات ، وربما بالكلمات المعسولة أيضًا ، لكنها أبت ، وأخبرت (وليد) بالأمر ، فثار ، واشتعلت المشاجرة بين الصديقين ليلتها حتى أفضت إلى قتل خطأ !

ـ أو أن (عاطف) كان يحب (لمياء) بالفعل هو الآخر ، لكنه أخفى الأمر عنها وعن (وليد) ، ولما علم (وليد) بوسيلة ما هذا الأمر ، دبّ بينه وبين صديقه الشّجار الذى انتهى بطعنة سكين من الخلف !

ـ أو أن (لمياء) لم تكن تحب أيهما ، لكنها كانت تجارى هذا وذاك حتى تنال فرصة الزواج من طبيب ينتشلها وأسرتها البائسة من قاع الفقر والفاقة ، وعلم (وليد) ذلك وأحس بجرح فى كرامته فحاول الثأر من (عاطف) ، فأصابه السكين فى النهاية !

هذا ما تراءى لى فى خيالى بعد توزيع كل الأدوار الممكنة على الأبطال الثلاثة !

نقدت سائق سيارة الأجرة نقود التوصيل ، واتجهت فى خطوات وئيدة نحو البوابة الزجاجية التى يقف أمامها جنديًا حراسة ..

ولا أعلم من أين تأتينى الشجاعة فى هذه المواقف ، فقد تجاوزت البوابة فى ثبات وبساطة ، حتى صاح أحد الجنديين من خلفى .

ـ انتظرى يا آنسة .. انتظرى ..

والتفتُ إليه فى عدم اكتراث ، وأنا أتساءل فى عدم فهم :

ـ أنا ؟!

وكأن دخولى هكذا لأحد المبانى الأمنية حق مكتسب غير قابل للنقاش !!

ـ بالطبع .. من تريدين ؟!

هززت كتفى فى استهانة وأنا أقول :

ـ لا أحد !!

ـ لا يمكنك الدخول هكذا !

ـ أنا صحفية فى جريدة (الأربعاء) ، جئت لعمل تحقيق صحفى حول .....

أتانى صوت هادئ قاطعنى من الخلف قائلاً :

ـ معذرة يا آنسة .. لكنى فى حاجة لرؤية بطاقة نقابة الصحفيين !

التفتُ لأرى محدثى ، كان ضابطًا وسيمًا يرتدى الحلة الرسمية ويمسك فى يده بجهاز الاتصال اللاسلكى ، وأسقط فى يدى وأنا أقول محاولة مداراة اضطرابى :

ـ إنه .. إنها ليست معى الآن !

قال فى أدب جمٍّ وشى بدماثة الخلق ورقة الطباع :

ـ لن يمكنك الدخول دون إثبات كونك صحفية ، وحتى مع هذا الإثبات ، لابد أن يستخرج لك تصريح خاص من مكتب الأمن لعمل التحقيق ..

ثم ابتسم قائلاً :

ـ عذرًا .. إنه النظام يا آنستى العزيزة !

وهنا لم أجد مفرًا من التنازل للمرة الثانية عن قرارى بالاعتماد الكامل والشامل على نفسى ، فقلت للضابط :

ـ حسن .. هلا أخبرت الرائد (هشام القاضى) بأن خطيبته تنتظره عند البوابة !

انتبه الضابط إلى الدبلة التى تحتل بنصرى الأيمن ، وجفل للحظة ، ثم انحنى فى هدوء وهو يقول :

ـ بالطبع يا آنسة .....

ـ (نسرين) .. (نسرين الجبالى) ..

وبعد دقائق ، كنت أصعد مع (هشام) ، للطابق الثانى وهو يسألنى فى ضيق :

ـ ألم يكن من الأفضل أن تخبرينى بميعاد قدومك ؟! أو حتى بقدومك أصلاً ؟!

ـ أنا أعشق المفاجآت !

ـ سيقتلك جنونك هذا يومًا ما !

هل تذكرون تلك العبارة ؟!

فلتنسوها كما تريدون ، سيذكّركم بها (هشام) فى غير موقف !

ـ المهم ، ماذا بشأن المتهمين ؟!

لقد حاولت جهدى ، ثم .....

ـ ثم ماذا ؟!

ـ استطعت أن أقتنص عشر دقائق كاملة !

ـ فقط ؟!

ـ من بين فكى الغضنفر !

ـ تشبيه لا بأس به !!

وعبر الدهليز الطويل ، مشيت فى إثر (هشام) وأنا أعد جهاز التسجيل الصغير للعمل ، حتى لا يفعلها وقت التسجيل ويمتنع عن الدوران ، وبينما نحن نمشى ، لمحتها جالسة على دكة خشبية أمام باب مغلق ..

(لمياء الفيل) ..

لمحتنى هى أيضًا ، ورأيت أن هذه فرصة حسنة لتعزيز موقفى أمامها ، فقلت لـ (هشام) فى لهجة حزم :

ـ رائد (هشام) !

التفت إلى عاقدًا حاجبيه فى غير فهم ، وقد أدرك أنها لعبة أخرى ، فقلت فى صراحة وأنا أشير لها :

ـ قبل استجواب (لمياء) ، أحضروا لها ما تطلب من المقصف !

ولم يتعب (هشام) نفسه فى فهم ما لن يفهمه ، فهز كتفيه فى تسليم ، ثم عاد يسير أمامى وأنا خلفه أغالب لهفتى للقاء المنتظر ..

★ ★ ★

ـ هل وصل الأمر للصحافة بهذه السرعة ؟!

سأل (عاطف) وهو يرمق جهاز التسجيل القابع فوق سطح المكتب المغطى بلوح من الزجاج ..

ـ لا يبدو الأمر مطمئنًا ..

قالها (توفيق) وهو يغالب خوفه ويحاول السيطرة على الرجفة السارية فى أوصاله ..

ونقلت بصرى بينهما لأرى مدى التناقض الرهيب فى ملامحهما وانفعالاتهما !

كان (عاطف) نحيفًا ، بارز عظام الوجه ، أجعد الشعر ، يرتدى منظارًا طبيًا سميكًا نوعًا فوق عينيه الضيقتين ليزدادا من خلفه ضيقًا يشى بمكر ودهاء .. وكانت شعيرات قصيرة متفرقة تغزو مناطق متباعدة من وجنتيه الغائرتين ..

أما (توفيق) فقد كان بدينًا ، طويل الشعر أسوده ، ذا لحية قصيرة (دوجلاس) ، والتى يسميها العامة (خمسة) لأنها أشبه بدائرة مغلقة ، وكان أشقر !

هذا التناقض الأول ، أما الثانى فتمثل فى هدوء (عاطف) .. برغم موقفه المعقد فى القضية .. ورباطة جأشه ، المتنافى

مع هلع (توفيق) وفرائصه المرتعدة .. برغم موقفه الحسن الذى ربما انتهى به إلى كونه مجرّد شاهد !

أمر يدعو للاستغراب بقدر ما يدعو للريبة !

حاولت أن أحوز ثقتهما قائلة :

ـ كل ما أسعى خلفه هو الحقيقة بلا زيف ولا رتوش !

قال (عاطف) ساخرًا :

ـ تقصدين قصة حافلة بالإثارة والتشويق لتضمنى مكافأة جيدة من خزانة الجريدة ، إضافة لاستحسان الجماهير العريضة ..

وتراجع بظهره ليغوص فى مقعده ، وهو يتابع بنفس الرنة الساخرة :

ـ آسف سيدتى ، لن تجدى لدينا ما تبغين ..

قلت فى إصرار :

ـ كل ما أبغيه هو الحقيقة ..

هبّ فىّ .. لدرجة أفزعتنى .. هاتفًا فى حدة :

ـ الحقيقة أننى لم أقتل صديقى الذى أشاركه السكن منذ ستة أعوام .. فهل أقنعك هذا ؟!

رأيت (توفيق) وهو يهم بقول شىء ثم آثر الصمت ، وعدت أخاطب (عاطف) متصنعة الرزانة والهدوء :

ـ ربما أقنعنى لو حوى قدرًا ضئيلاً من المنطق ..

ـ تبًا للمنطق !!

كيف أناقش هذا الفتى ؟! ليكن .. المزيد والمزيد من الصبر .. واللعب بالحوار ..

ـ لقد دب بينكما شجار ليلتها ..

عقد ساعديه أمام صدره قائلاً فى لهجة تحدٍ :

ـ قلت فى التحقيق إنه كان شجارًا عاديًا ..

ـ بسبب .....

ـ كان يثور عندما يستعمل أحد متعلقاته الشخصية .. وقد لبست يومها قميصه الجديد فثار ، ولما أهاننى رددت له الصاع اثنين .. وحادثت (توفيق) هاتفيًا لأقضى الليلة معه حتى تهدأ الأحوال فى اليوم الثانى ..

حيلة لا تنطلى على طفل ساذج ، ولا تقنع عبيط القرية المجذوب ، حتى مع صبغة الثقة التى طلى بها كلماته ، لذا رأيت أن أهاجمه مباشرة :

ـ وهل لـ (لمياء) علاقة بهذا الأمر ؟!

لم يتوقع السؤال .. كان هذا واضحًا ، والأوضح منه كان الاضطراب المرتسم على قسمات (توفيق) الطفولية ـ نظرًا لبدانته المفرطة ـ وندت عن (عاطف) كلمة واحدة :

ـ (لمياء) ؟!

ـ نعم ..

تمالك نفسه بسرعة وقال مغلقًا عينيه ، كأنه يطرد شبح ذكرى مؤلمة :

ـ إنها تملك لسانًا ، وتستطيع التحدث عن نفسها ..

اطرق الحديد وهو ساخن ، الهجوم الثانى ..

ـ ما رأيك فى علاقتها بالقتيل (وليد) ؟!

ـ أى عاقل سيرفضها على الفور ..

ـ هل أخبرته ؟!

ـ كان يعلم أن هذا هو رأيى ..

ـ وهل حاولت بأى طريقة أن تبعد (وليد) عنها ؟!

صمت يفكر فى السؤال ، ولما فهم مغزاه هتف فى حدة أفزعتنى مرة أخرى :

ـ ماذا تقصدين ؟! إننى لم أقتله .. هل هذا واضح ؟!

ازدرد (توفيق) ريقه فى توتر ، بينما انتفض (عاطف) واقفًا ، وهو يواصل هتافه الحاد :

ـ إننى أرفض الحديث معك .. هذا حقى القانونى ..

نهضت فى تثاقل وأنا أقول :

ـ هذا حقك بالطبع ، ولكن .. لدى سؤال أخير !

أى سماجة جعلتنى أقول هذا ! لكنه قال فى أنفة :

ـ سؤال واحد فقط !

ـ الجمجمة !

أصابت الكلمة الهدف فى الصميم ، فقد التفت (عاطف) نحوى فى حدة ، وتفصّد العرق من جبين (توفيق) وصدغيه ، وبات جليًا أن السيد (س) على حق تمامًا !

ـ ماذا عنها ؟!

ـ من قذف بها الآخر ؟!

ـ لقد قدفنى هو بها !

ـ ولماذا هى تحديدًا ؟! وهناك أشياء أخرى كثيرة فى الشقة تصلح لـ ...

قاطعنى ، قائلاً :

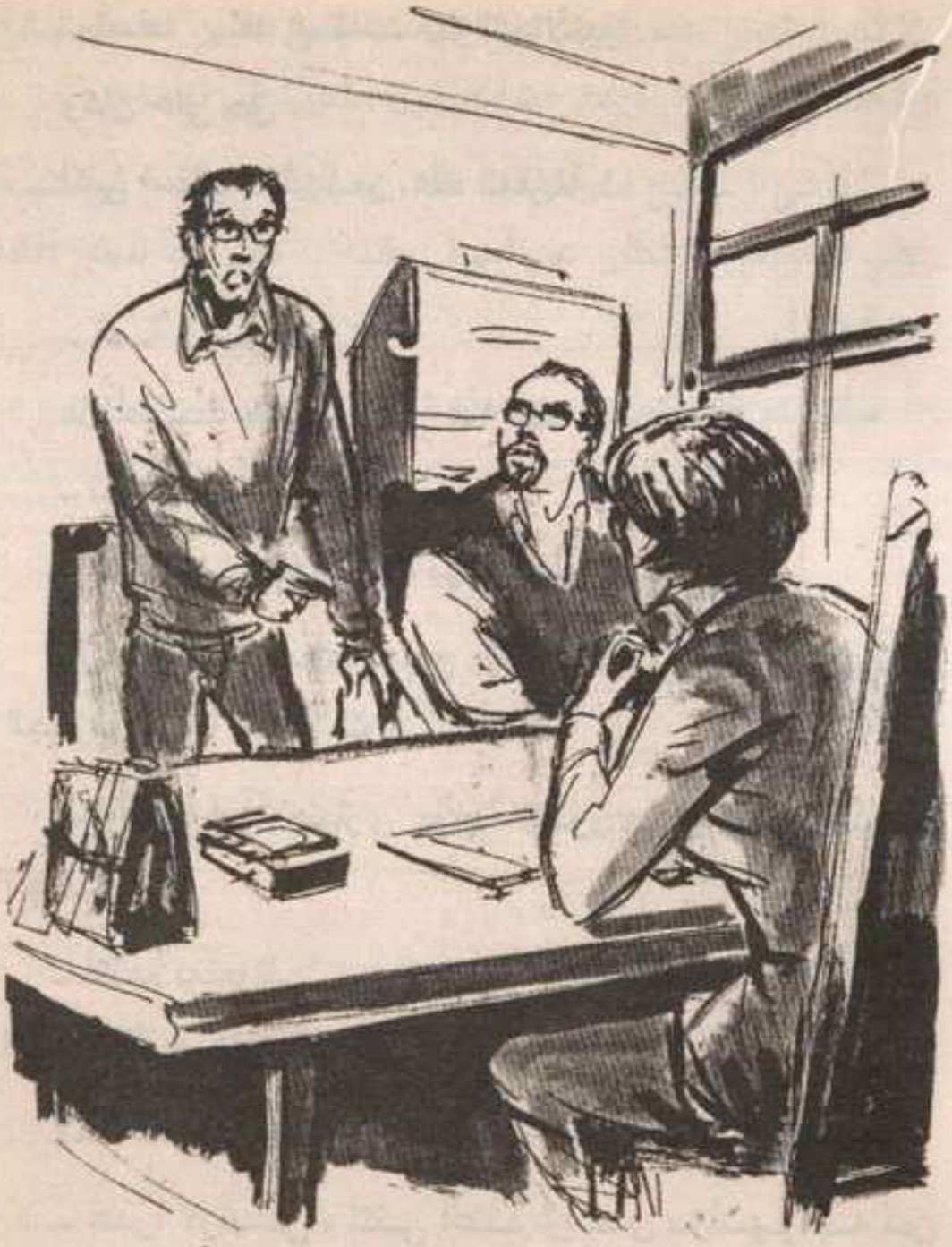

ازدرد (توفيق) ريقه فى توتر ، بينما انتفض (عاطف) واقفًا ، وهو يواصل هتافه الحاد : ـ إننى أرفض الحديث معك . . هذا حقى القانونى . .

ـ آسف .. لقد استنفدت سؤالك الأخير ..

وكان على حق ..

لكنى استفدت كثيرًا من هذه المقابلة !

★ ★ ★

ـ آنسة (نسرين) ؟!

هل أصبحت مشهورة إلى هذا الحد ؟!

ـ نعم .. هى أنا ..

ـ عذرًا على اقتحامى لك بهذه الصورة ..

كان شابًا حاد الملامح مليح القسمات إلى حد ما ، يرتدى الجينز وقميصًا أبيض اللون .

استوقفنى فور اجتيازى بوابة الخروج من مبنى المباحث الجنائية ..

ـ لكنهم يمنعوننى من الدخول ، وقد سمعتك تقولين عند البوابة إنك صحفية فى جريدة (الأربعاء) و ...

لاحظ أنه يبدأ قصته من النهاية .. فبتر عبارته ، وعاد يقول :

ـ عذرًا لارتباكى ، لكنى أعتقد أن لدى ما أسهم به من معلومات فى قضية (وليد يسرى) !

تحول تعبير عدم الفهم على ملامحه إلى تعبير اهتمام بالغ وشغف لا نهائى .. وعاد الشاب يقول مشيرًا إلى نفسه :

ـ أدعى (سامح معوض) ، كنت زميلاً لـ (وليد) فى كلية الطب .. وأعرف الكثير عن أسرار مقتله .. فهل أجد لديك آذانًا مصغية ؟!

سأترككم أنتم لتجيبوا عن هذا السؤال !

★ ★ ★

٥ ـ سـر العُقـد الماسى ..

قال (سامح معوض) :

ـ كنا أصدقاء ، برغم أنه كان يسبقنى بسنة دراسية كاملة !

ما زال مصرًا على المقدمات التى لا طائل من ورائها ، فحثثته على الدخول فى صلب الموضوع بقولى :

ـ قلت إنك تعرف الكثير عن أسرار مقتله ..

هزّ رأسه بالإيجاب ، لكنه تردّد للحظة ثم قال :

ـ أنا لا أدرى إن كان لما أعرف صلة مباشرة بمقتله أو لا ، لكن ...

قلت فى نفاد صبر مقاطعة :

ـ لم لا تترك لى تقرير ذلك ؟!

تنهّد ، ثم فرك كفيه قائلاً فى حسم :

ـ حسن .. إن الأمر يتعلق بالعُقد !

ـ أى عُقد ؟!

ـ عُقد الماس !

رائع ! لقد أفهمنى بالفعل !

ـ أى عُقد ؟!

أدرك أننى أريد معرفة القصة من بدايتها ، فاستطرد قائلاً :

ـ منذ شهر بالتقريب جاءنى (وليد) مع فتاة قال إنها خطيبته ، وقدمها لى باسم (لمياء) ، وكان يحمل رسمًا كروكيًا لعُقد من الماس طلب منى تقليده !

فى غير فهم تساءلت :

ـ تقليده ؟!

أجل .. لقد كان (وليد) يعلم أن والدى يمتلك محلاً لصنع الاكسسوارات وتقليد المجوهرات الأصلية الثمينة ، بأخرى رخيصة التكاليف منعدمة القيمة !

وبالفعل أتممت لهما ما يريدان فى زمن قياسى ..

سألته مستفهمة :

ـ وما علاقة هذا بالحادث ؟!

ـ لقد قلت إنه محض إحساس !

ـ إحساس لا تبرهنه أى قرينة ..

ـ فقط لو تناسينا هذا ..

وأخرج من جيب قميصه الأبيض ورقتين ، فرد الأولى أمامى مشيرًا إلى الرسم المخطوط فوقها بالقلم الرصاص ، قائلاً :

ـ هذا هو الرسم الذى أحضراه لى ..

ثم فرد الأخرى ، وكانت قصاصة من جريدة تحمل تاريخًا حديثًا يعود لأسبوع مضى ، والمانشيت مكتوب بخط سميك واضح :

(سرقة عقد ماسى نفيس من محل مجوهرات الملكة)

وكانت هناك صورتان ، إحداهما للسيد (سالم نعيم) ، صاحب المحل ، والأخرى للعقد الماسى المسروق ، الذى يطابق الرسم الكروكى تمامًا !

وكان هذا أبلغ من أى حديث يقال فى ظرف كهذا !

لذا ، فقد آثر (سامح) الصمت البليغ ، وأنا كذلك ..

★ ★ ★

ـ كلا .. هذا كثير .. كثير جدًا ..

هذا ما تمخضت عنه عصبية (هشام) فى مكتبه بمبنى المباحث ، إثر طلب آخر بسيط طلبته منه ، وهو رؤية (عاطف) و (توفيق) مرة أخرى !

ـ أرجوك يا (هشام) .. إنها مسألة حياة أو موت !

أنا أكره التوسل والمبالغة ، لكن أخاك مجبر لا بطل !

ـ كلا ، لن أستطيع ..

بدا حازمًا حاسمًا حتى إن لهجته ألجمت لسانى المندفع للحظة ، لكنى عدت أقول :

ـ دقيقتان فقط هذه المرة ..

ـ ولا ثانية واحدة ..

ـ ربما توصلنا لحل اللغز ..

ـ أى لغز يا آنسة (هولمز) ؟! قلت لك إنها قضية مكتملة الأركان ..

تحسست ورقة الرسم الكروكى فى جيبى وأنا أرد :

ـ وقلت أيضًا إن الدافع مازال ينقصها ..

قال متسخفًا :

ـ هل عثرت عليه أيتها الصحفية العبقرية ؟!

تركته يرى الإجابة مرسومة فى هيئة عُقد ماسى ، ورأيت حاجبيه ينعقدان ، ثم تساءل فى تعجب :

ـ ما هذا ؟!

ـ الدافع يا حضرة الرائد .. العُقد الماسى المسروق ..

عاد يتساءل فى حيرة :

ـ من أين حصلت على هذا ؟!

واضطررت لأن أقص له ما حدث مع (سامح) ..

ـ وجلست معه بمفردكما فى مكان عام ؟!

دائمًا حيث لا أتوقع منه هذا ؟!

ـ لا أعتقد أنه الوقت المناسب لبداية شجار بدافع الغيرة ..

عاد يحدّق فى الرسم المتقن نوعًا ، ثم سأل فى ضيق :

ـ ولماذا لم يبلغ هذا الـ (سامح) عما يعرف هنا ؟!

ـ قال إنهم يمنعونه من الدخول .

بضيق أشد قال :

ـ هراء ، لو أخبرهم عند البوابة بغرض قدومه لأدخلوه بلا نقاش ..

قلت ألتمس له العذر ، فهذا أيضًا لم يكن موضوعنا الأساسى :

ـ ربما كان الخوف أو التردّد أو ...

طوى (هشام) الرسم الكروكى ، قائلاً :

ـ أيًا كان دافعه ، فلن يغير من موقفى شيئًا .

ـ وما معنى هذا ؟!

ـ كلامى أوضح من أن يفسر .

سألته فى غيظ :

ـ ألن تساعدنى يا (هشام) ؟!

قال معطيًا ظهره لى :

ـ قدمت لك كل ما أستطيع حتى الآن ..

كدت أنفجر فيه ، وفكّرت فى خلع الدبلة وتركها فوق سطح المكتب ، لكن هناك ميزة أخرى فىّ ، هى أننى لا أنجرف مع حمم الغضب المتفجرة فى أعماقى كألف بركان !

ـ شكرًا يا حضرة الرائد ..

لماذا تراجعت عن قرارى الحازم ؟! هأنذا أتراجع عن تراجعى فيه ..

سأعتمد على نفسى كلية ..

ولكن كيف ؟!

ظللت أفكر فى نقطة أبدأ منها وأنا أهبط إلى بوابة الخروج .. ولأننى سعيدة الحظ ، وجدت نقطة البداية تنتظرنى عند البوابة .. (لمياء الفيل) ..

★ ★ ★

ـ لم أره سوى مرة واحدة فقط ..

ردّت (لمياء) على سؤالى حول معرفتها بـ (سامح معوض) بهذه العبارة ، وسألتها متخذة سمت الجدية والوقار البوليسى المعهود :

ـ وما السبب ؟!

تعمدت أن يكون سؤالى غامضًا مفاجئًا ، وكان ردها المتوقع بسؤال آخر :

ـ سبب ماذا ؟!

ـ سبب رؤيتك إياه للمرة الأولى .. والأخيرة ..

أحست أننى أعرف شيئًا ، فأوجست منى خيفة.، لكنها قالت فى هدوء :

ـ لا يوجد سبب محدّد ..

وللحق أقول إنها ممثلة بارعة ، ولولا معرفتى بالأمر لخدعتنى براءتها وثقتها بما تقول .. ولا مفر من أن أتقمص أنا دورى ببراعة أشد ، ولنر من منا تستحق (الأوسكار) فى النهاية ..

ـ انظرى يا (لمياء) .. نحن فى سلك الشرطة نعلم أشياء كثيرة .. أكثر مما تتصورين أو يتصور أى أحد ..

صمتت لبرهة ، ثم سألت والرهبة تعرف طريقها إلى نبراتها :

ـ تعلمون هذا ؟!

ـ هذا مثلاً ..

وحمدت اللّه على أنى لم أعط هذه الورقة لـ (هشام) وإلا لأخذها هى الأخرى كما فعل بورقة الرسم الكروكى .. وأخذت (لمياء) تتملى فى قصاصة الجريدة حتى قالت فى النهاية :

ـ لا أعلم عن هذا شيئًا ..

بدأ الممثل يفقد مصداقيته فى الأداء ، لكنه يحاول التشبث مما تبقى منها ..

ـ ألا يبدو لك هذا العُقد مألوفًا ؟!

طال صمتها كأنها تحاول إيجاد رد مقنع لا يجعلها تهوى فى قاع وادى الكذابين ، فهى تعرف أننى قابلت (سامح معوض) وإلا لما سألتها عنه ، وتعرف بكل تأكيد أنه أخبرنى بالكثير وإلا لما كنت أمسك بهذه القصاصة فى مواجهتها ..

ـ نعم .. إنه يبدو كذلك ..

من الجلى أنها تحاول وزن كلماتها بميزان دقيق ، وتابعت ، بينما أحدق أنا فيها والصمت والجمود قناعان على وجهى من جليد :

ـ أحضر لى (وليد) يومًا عقدًا مقلدًا يشبهه ..

ـ هل ما زال لديك ؟!

ـ كلا .. لقد أخذه مرة أخرى !

ـ لماذا ؟!

ظهر الارتباك واضحًا عليها لأول مرة وهى تجيب :

ـ لقد .. لقد أخذه ليصلحه بعدما انقطع من الخلف !

إنها تكذب .. أقسم على هذا بروح أمى المتوفاة ..

ـ لا يبدو هذا مقنعًا !

ـ هذا ما حدث ..

زفرت فى إنهاك ، وقد استنفدت كل وسائل الهجوم الصالحة ، ولكنى رفعتُ سبَّابتى فى مواجهتها وأنا أقول بلهجة تهديد ووعيد :

ـ لو كنت تكذبين يا (لمياء) ، فسيأتى اليوم الذى ستتمنّينَ فيه لو لم تكذبى قط ..

وأضفتُ فى لهجة مرعبة :

ـ واسألى ضابطة شرطة محترفة !!

انتظرت التصفيق الحار من الجمهور المتابع ، لكنى تنبهت لأننى لا أقف على خشبة المسرح .. وأخبرتنى ملامح (لمياء) أننى أجدت أداء دورى لأقصى حد .. خاصة وهى تبتلع ريقها ، فى خوف بيّن ..

★ ★ ★

الأمور تتعقد ، هذا أمر لا شك فيه ..

ألقيت بجسدى المنهك فوق الأريكة الوثيرة فى بهو المنزل ، وعقلى يحاول استرجاع كل ما فات ، لتنظيمه والعثور على التصوّر المناسب لهذه القصة التى لن أكتبها ، قبل اكتمال كافة أركانها ..

ـ لقد عادت أميرتى الحسناء إذن ..

أبى فى المنزل قبل عودتى ؟! إنه حادث مثل مذنب (هالى) لا يظهر إلا كل ٧٥ عامًا !!

لقد أوحشنى هذا الرجل المشغول حقًّا !

ألقيت بنفسى بين ذراعيه فى شوق ، وأنا أقول فى دلال الطفلة التى لم تجاوز العاشرة :

ـ يبدو أنك لم تنسها بعد !

ـ قد أنسى أيام الأسبوع وفصول السنة ، لكنى أبدًا لا أنساها !

وأخبرتنى ملامح (لمياء) أننى أجدت أداء دورى لأقصى حد ..

حنون أبى ، نادرًا ما يعوض الأب وحده غياب الأم ، لكن هذا الرجل النادر الطراز فعلها ، كان يومًا أبى وأمى وأشقائى وشقيقاتى وكل أقربائى فى هذا العالم الصغير الكبير !

وتناولنا الغداء معًا ، وعلى الرغم منى شردت فى أثناء الطعام ، أخذتنى الدوامة التى أدور فيها منذ صباح الأمس ، (وليد) و (عاطف) و (لمياء) والسيد (س) والوريقة والقلادة والحديث الهاتفى و ...

ـ إنك مشتاقة إلىّ لدرجة الشرود عما أقول !

اخترق صوت أبى دوامة الأفكار المتناثرة ، فابتسمت فى خجل وأنا أعتذر قائلة :

ـ ستعذرنى يا والدى .. أعلم هذا ..

قال ضاحكًا :

ـ هذا مفروغ منه ، لكنى أتحدث عما بك ..

وسألنى بابتسامة خبيثة مداعبًا :

ـ هل تشاجرت مع حضرة الرائد ؟!

نعم .. لكن ليس هذا سبب شرودى .. خلافى مع (هشام) سأسويه لاحقًا ، أو هو سيسوى نفسه بنفسه كالمعتاد ، لكنى لم أخبر والدى بهذا بالطبع !

ـ لا .. كل شىء على ما يُرام ..

ـ هو موضوع خاص إذن .. ممنوع الاقتراب والتصوير !

ابتسمت قائلة :

ـ كلا .. إنها مجرّد جريمة قتل !

بالتأكيد هو لم يتوقع هذا ، حتى ولو على سبيل الدعابة ، فعقد حاجبيه الأشيبين هاتفًا :

ـ ماذا ؟!

أضحكنى رد فعله ، فقلت متداركة :

ـ اطمئن .. إننى لست الجانى ! وبالتأكيد لست المجنى عليه !

ـ وما الذى أقحمك فى مسألة كهذه ؟! أم أنك تعاونين حضرة الرائد عملاً بمبدأ التعاون أساس الحياة الناجحة ؟!

ـ سأخبرك يا أبى فى الوقت المناسب ..

لا يغضب هذا أبى إطلاقًا ، إنه دومًا يترك لى مساحة حرّة لأتحرك فى خلالها كما أشاء ، إنها طريقته الحديثة فى تربية ابنته الوحيدة ..

ـ ودعنى أستأذنك الآن لأنال قسطًا من الراحة .. إننى جد منهكة !

فكّر قليلاً ، ثم قال :

ـ ربما أسمح لك بهذا لو دفعت الإتاوة المناسبة ..

وابتسمتُ وقد فهمت ما يعنيه ، فاتجهت إليه وانحنيت لأطبع قبلة على خدّه ..

أنا أعشق هذا الرجل أكثر من أى شىء فى هذه الدنيا !

★ ★ ★

مازالت رواية (لوبين) منكفئة ليظهر غلافها ، لم أستطع تجاوز الصفحة الثالثة بالأمس خاصة بعد مكالمة السيد (س) ، التى قلبت موازين كثيرة فى نفسى ، والتى ما زال صداها يتردّد فى جنبات أفكارى ..

هل سيعاود الاتصال ؟!

شىء كهذا يستحيل التنبؤ به ..

حسن ، هأنذا أستلقى فوق الفراش ، وأرخى كل عضلاتى ، وأطلق العنان لأفكارى محاولة تنظيمها وترويضها ..

لنر ماذا لدينا بعد يومين كاملين ..

أولاً : مقتل (وليد يسرى) بسكين اخترق رقبته من الخلف ، وحتى الآن لا أدرى شيئًا عن تقرير فحص البصمات ، لكنى لا أعتقد أنه كان ذا قيمة ، وإلا أخبرنى (هشام) قبل انفجار الموقف بيننا ..

ثانيًا : (عاطف نصر) هو المشتبه فيه رقم (١) ، رآه البواب (خضر) ينزل من الشقة غاضبًا بعد الشجار الذى احتدم بينه وبين القتيل ، والذى يسوق له (عاطف) سببًا تافهًا ، ملفقًا فى الغالب ..

ثالثًا : (فتش عن المرأة) كانت عبارة مكتوبة فوق وريقة عثرت عليها بمحض الصدفة فى شقة الجريمة ، ممهورة بتوقيع السيد (س) ، و (لمياء) هى الطرف النسائى الوحيد فى هذه القضية .. لكنها تنكر أى صلة لها بالحادث ..

رابعًا : فى اتصال هاتفى يطرح السيد (س) سؤالاً لم يلفت انتباه أحد : لماذا قذف (وليد) الجمجمة بالذات ؟!

خامسًا : ظهور (سامح معوض) أضاء خيطًا جديدًا ، وهو العُقد الماسى المسروق ، هل سرقه (وليد) ؟! أم (عاطف) ؟! أم (لمياء) ؟! أم لعلها فعلة مشتركة بين الثلاثة ؟!

لو سمح (هشام) لى بمقابلة (عاطف) مرة أخرى ، لوفّر علىَ حيرة جمّة ..

لكن ما حدث قد حدث .. ولنفكر الآن فى ما بأيدينا ..

هناك حلقة مفقودة ، شىء ما يربط بين هذه العناصر جميعها ، فلو كان (عاطف) قد قتل صديقه بسبب التنافس

على (لمياء) ـ كما أتصور أنا ـ فما دخل العُقد الماسى بهذا الأمر ؟! بل وأين العُقد أصلاً ؟!

وأضمرت أمرًا ، سأذهب فى الغد لمحل مجوهرات (الملكة) لأعاين الأمر بنفسى هناك !

أدركت أننى أدور حول نفسى فى دائرة مفرغة ، وبرغم هذا استمر التفكير فى هذا الأمر يشمل كل خلايا مخى ، فلم أذاكر هذا اليوم أيضًا ، بل واستعصت رواية (لوبين) نفسها على القراءة ، فبين كل سطر وآخر يباغتنى سؤال بلا إجابة ، يقودنى إلى سؤال آخر أعقد ، فسؤال آخر .. وهكذا ..

حتى غلبنى النعاس ..

لم أنم ، بل كانت تلك الحالة الرمادية بين النور والظلام ، بين الوهم والحقيقة ، بين الرؤية والحلم ، حيث لا أغرق فى النوم ولا أعى ما حولى جيدًا ..

ورأيته ..

ظل رجل .. أو رجل غارق فى الظل .. أو الرجل الظل .. لا يهم الوصف ما دام لن يستطيع نقل نصف الحقيقة ..

ـ من أنت ؟!

سألته فى خوف .. تلفتّ حولى ، لم تكن الأرض تحت قدمى ،

ولا السماء فوق رأسى .. كنت أقف فى منطقة اللامكان المتسربل باللازمان ..

منطقة المطلق ..

لم يجب .. فصرخت :

ـ من أنت ؟!

ابتسم ، ولا أدرى كيف رأيت ابتسامته .. ثم أتتنى الإجابة التى لم يقلها ..

ـ السيد (س) !

مع ضحكة ساخرة مجلجلة .. تداخلت مع جرس الهاتف !

جرس الهاتف كان حقيقة ، أيقظتنى من حالة اللانوم هذه ، وهرعت مسرعة لأرد ، لكن أبى كان قد سبقنى .

ـ من ؟!

ـ تبًا لهذه المعاكسات السخيفة ؟!

ـ ماذا حدث ؟!

ـ لقد أغلق السماعة فى وجهى !

لم شعرت بالخوف ؟!

ولم نقلت جهاز الهاتف إلى غرفتى فور أن دخل والدى غرفته ؟!

ولماذا فزعت عندما رن جرس الهاتف مرة أخرى ؟!

أعتقد أنكم تعلمون !

★ ★ ★

٦ ـ البدايــة الحقيقيــة ..

(نص المكالمة الهاتفية الثانية ـ بدون تعليق !)

أنا : (بخوف) آلو ..

الصوت : إنك تبلين بلاءً حسنًا ..

أنا : السيد (س) ؟!

الصوت : بدأت تتعرفين صوتى بمفردك .. يا للروعة !

أنا : ما الذى يحدث ؟!

الصوت : المفترض أن تتوصلى إلى هذا بمفردك !

أنـا : (بعد لحظـة صمـت) مـاذا عن العقد الماسـى ؟ هـل تعرف عنه شيئًا ؟!

الصوت : (ضحكة سافرة مجلجلة) نياهاهاها ..

أنا : فيم الضحك ؟!

الصوت : إنه معى الآن !

أنا : (بدهشة) إنه ماذا ؟!

الصوت : ها هو ذا .. كم يبدو بريق الماس الحقيقى أخَاذًا ..

أنا : (باكتشاف) أنت من سرقه إذن ..

الصوت : صح .. وخطأ !

أنا : هل تمزح ؟!

الصوت : أحيانًا .. لكنى أحدثك بمنتهى الجدية .. فقد سرقته ولم أسرقه ..

أنا : ماذا تقصد ؟!

الصوت : طبقًا لمبادئ العدالة الشاعرية .. فلا تعد السرقة من سارق جريمة !

أنا : أى أنك سرقته من ...

الصوت : (مقاطعًا) من سارقه الأصلى .. ألا يذكرك هذا بشخص تحبينه ؟!

أنا : (مهمهة) (آرسين لوبين) !

الصوت : تمامًا ..

أنا : ومن هو السارق الأصلى ؟!

الصوت : هذا هو الجزء الأجمل من اللغز .. إن الجريمة تفضى دائمًا لجريمة أبشع عنها !

أنا : (فى ضيق) لا أفهم ..

الصوت : لأنك تدفعين أفكارك فى الاتجاه الخاطئ ..

أنا : (فى حيرة) أى اتجاه تقصد ؟!

الصوت : أولى الخطايا البشرية بسبب امرأة .. لم تكن عندما قتل الأخ أخاه ..

أنا : هل تعتقد أن ...

الصوت : (فى عمق مخيف) لقد بدأت القصة قبل ذلك بكثير .. لم تبدأ على الأرض .. بل فى السماء ..

أنا : (آدم) .. و (حواء) ؟!

الصوت : دائمًا ينتهى الوقت قبل الوصول للإجابة الصحيحة .. إلى اللقاء يا عزيزتى ..

قريبًا ..

(نغمة متقطعة) ..

★ ★ ★

البداية الحقيقية كانت فى جنة الفردوس السماوى ، حيث أنهار اللبن والعسل ، وعيون الكافور والسلسبيل ، والأشجار ذات القطوف الدانية والظلال الممدودة ، والأيائل والطواويس والطيور ، وكل آيات الحسن الربانى الباهر ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

أسكنهما المولى فسيح جناته ، هيأ لهما فيها كل أسباب السعادة والهناءة ، تركها لهما مشاعًا ليأكلا منها رغدًا ، فقط نهاهما عن شجرة واحدة لا يقرباتها فيكونان من الظالمين ..

وأبى الشيطان ـ طريد رحمة الرحمن ـ أن يتركهما ، فتمثل لـ (حواء) فى هيئة حية ضخمة ، وأغواها فأغوت (آدم) ، وامتدت الأصابع تقطف الثمرة المحرمة المشتهاة ..

وكانت أولى الخطايا البشرية على الإطلاق ..

★ ★ ★

جلست أعيد ترتيب أفكارى على ضوء ما استجد من معطيات ..

تلاشت التصورات القديمة من مخيلتى ، وطفقت أحاول وضع تصور جديد لسيناريو الأحداث ، أربط به كل النقاط المتباعدة برباط المنطق والعقلانية ..

لقد أحب (وليد) (لمياء) ، وأراد الارتباط الرسمى بها ، لكن أهله رفضوا الأمر قلبًا وقالبًا ، وأصروا على هذا الموقف الرافض ..

لذا ، وجد (وليد) نفسه مضطرًا للتقدم لخطبتها بمفرده ، دون أى سند معنوى أو مادى من الأسرة ، سيكون عليه إتمام الأمر من الألف إلى الياء بمفرده ..

وهنا ، يلعب شيطان الغواية فى رأسه ..

ويقرر سرقة العُقد الماسى ..

كان قد رآه فى واجهة محل مجوهرات (الملكة) ، فعقد العزم على سرقته .

كيف ؟! ما زالت الصورة باهتة ، لكنها تتعلق حتمًا بالنسخة المزيفة التى طلب من (سامح) صنعها فى محل والده ..

عمومًا سأتبين هذه التفصيلة الصغيرة غدًا ، عند زيارتى لمحل مجوهرات (الملكة) ..

المهم أن السرقة تمت ، وبنجاح ، وأبلغ صاحب المتجر عنها ونشرت الصحف الخبر مصحوبًا بالصورة ، فقرر (وليد) أن يخفى العُقد عن الأعين مؤقتًا ، حتى يرى طريقة ليتصرف فيه بالبيع أو حتى بالتهريب ..

وظل يفكّر فى هذا المكان الأمين الذى لا يصل إليه أحد ، وواتته الفكرة ..

كانت فكرة بسيطة ، لكن جمالها كان فى بساطتها ، والبساطة ـ كما نعلم ـ هى الأم الشرعية للجمال ، طفلها الوحيد ..

أين ؟!

داخل الجمجمة التى يدرس عليها مادة التشريح !

لن يتصور أحد أن هذه الجمجمة المطلية بالورنيش تحوى داخلها كنزًا مهولاً، وكان عدم استخدام الآخرين لها مضمونًا بأنه ـ كما قال (عاطف) ـ يأنف من أن يستخدم أحد حاجياته الخاصة ..

ثم مضت أيام قلائل ، فوجئ (وليد) بعدها بأن جوف الجمجمة خال تمامًا من أى عقود ماسية ، كقاع بئر جاف .. وتزامن هذا مع إحضار (عاطف) للعشاء الأخير ليلة الحادث ..

ثم عاد (عاطف) ، ونشب الشجار بينه وبين (وليد) ، وإن كنت أجهل إن كان (عاطف) على علم بأمر هذه القلادة أم لا .. والفضل للرائد (هشام) خطيبى العزيز !! المهم أن الشجار تصاعد حتى قذف (وليد) (عاطف) بالجمجمة الفارغة التى كان يمسكها فى يده بالفعل ، ثم انتهى الأمر نهايته المعروفة بترك (عاطف) للمنزل ، ثم العثور على جثة (وليد) فجرًا ..

تصور منطقى لا بأس به ، وإن كان يبعد أصابع الاتهام عن (عاطف) نوعًا ما .. ويثير عاصفة من الأسئلة الحائرة الجديدة :

* هل كان يعلم (عاطف) بأمر العُقد الماسى ؟!

وإن كان يعلم فلماذا أخفى الأمر فى التحقيق ؟!

* من سرق العُقد الماسى ؟!

(عاطف) ؟! ربما .. لكن السيد (س) يقول ، إنه بحوزته ..

لكننا نعود للسؤال الرئيسى الذى نتجاهله ..

* من هو السيد (س) هذا ؟!

ألا يحتمل أن يكون زميلاً لـ (عاطف) ، شاركه فى سرقة القلادة ، ثم هو يلعب دوره بإتقان لإبعاد الشبهة عنه ، وإلصاقها بشخص آخر مجهول الهوية ؟!

يبدو هذا منطقيًا لو تجاهلنا أن السيد (س) يعرف عنى كل شىء ، ويطاردنى أنا بالذات دون أى شخص له صلة فعلية بالحادث ، كرجال الشرطة مثلاً ..

من يكون إذن ؟!

وما صلته بالحادث ؟!

و ...

ألم أقل لكم إننا ندور فى نفس الدائرة المفرغة ؟!

★ ★ ★

نظرت إلى المنبه فور استيقاظى ، وعلمت أن ميعاد المحاضرة الأولى قد فات !

لا أتفاءل عندما يبدأ اليوم هكذا !

حسن ، لن أذهب للجامعة ، سأتجه لمحل المجوهرات رأسًا ، وستعوضنى (رحاب) و (مروة) عما فاتنى من دروس اليوم ..

هذه أكبر فوائد الصداقة الحقيقية !

ولم يجهدنى الوصول للعنوان ، فالمحل شهير ويتمتع بسمعة حسنة ، إضافة إلى أنه يحتل ناصية كبيرة وواضحة فى أحد أكبر شوارع العاصمة المزدحم بالناس والسيارات ..

يبدو الديكور من بعيد فاتنًا ، لكن الذى هالنى هو كم المجوهرات المهول المعروض فى واجهة المحل الزجاجية ، يخلب الألباب حقًا ..

لو قدر الله (سبحانه وتعالى) أن يتم ما بينى وبين (هشام) ، على خير ، فسوف أبتاع شبكتى من هنا !

هذا (لو) !!

اقتحمت المحل الضيق من الداخل نوعًا ، وسألت البائع الشاب فى سرعة فتاة عملية لا تجد وقتًا حتى للكلام ..

- أين السيد (سالم نعيم) من فضلك ؟!

ابتسم الشاب ابتسامته المهنية قائلاً فى لهجة ودود :

- هل من خدمة أسديها إليك يا آنسة ؟

أمقت هذه الرسميات !

- أريده شخصيًا من فضلك ..

هزّ رأسه فى إيجاب .. وأشار إلى ستار أحمر اللون يحجب ما خلفه :

- إنه فى مكتبه ، لحظات وأخبره .. ولكن هل لى فى معرفة الاسم ؟!

قلت فى فخر كأننى أنطق اسم ملكة (انجلترا) :

- (نسرين الجبالى) .. صحفية ..

لم يغب فى الداخل طويلاً ، عاد بعد لحظات وفى إثره السيد (سالم) بشعره الأشيب وهيئته المتناسقة المتطابقة مع صورته فى الجريدة ، وهو يسأل :

ـ ما الخطب يا ابنتى ؟!

ـ جئت بخصوص العُقد الماسى المسروق ، سيد (سالم) !

ابتسم السيد (سالم) ابتسامة أبوية ، وهو يقول مصححًا :

ـ تقصدين الذى كان مسروقًا ؟!

والتفت يفتح خزانة موصدة ، غير ملاحظ لتعبير البلاهة الذى ارتسم فوق سحنتى ، وأنا أردد فاغرة فاهى :

ـ كان ؟!

تابع فى بساطة وأصابعه تعدو بالقرص المعدنى فوق الأرقام السرية التى يخفيها بظهره :

ـ أجل .. ظننتك جئت بشأن هذا ..

هززت رأسى محاولة هضم الفكرة وأنا أتساءل فى ذهول :

ـ و .. وكيف هذا ؟!

التفت إلى ليريني عُقدًا تبرق فصوصه الماسية فى ضوء النهار بألوان خلابة ، مستقرًا فوق وسادة من المخمل الأزرق ، وأجابنى ، قائلاً :

ـ شخص ما أعاده إلىّ بالأمس ، وكنت أنوى إبلاغ الشرطة اليوم لغلق المحضر ، لكنى انشغلت تمامًا بكل أسف ..

قلت وعيناى تشع فى انبهار ، دون أن أستطيع إبعادهما عن العقد اللامع :

ـ شخص ما ؟!

ـ أجل ، رفض ذكر اسمه وطريقة عثوره عليه ، وتركنى أفحصه لأتأكد من أنه الأصلى ، كان كل همى هو استعادته بالطبع ، فلم ألح عليه فى السؤال عن هويته ..

بهرنى مرأى الماس ، حتى إننى نسيت كل الكلمات التى يمكن أن تقال ، بينما تابع السيد (سالم) وهو يتفحص ملامحى المبهورة :

ـ عقد كهذا يساوى أربعة ملايين من الجنيهات على الأقل ، لذا لم أتوان لحظة عن استعادته بأى مقابل ، وقد كان الرجل كريمًا معى لأقصى حدّ ، فاكتفى بخمسة فى المائة مكافأة له ..

شهقت على الرغم منى وأنا أقول بعد أن أجريت العملية الحسابية فى عقلى بسرعة البرق :

ـ أى ما يوازى المائتى ألف جنيه ..

هزّ السيد (سالم) رأسه بالإيجاب ، وقال :

ـ هذا صحيح ، لقد كتبت له شيكًا بالمبلغ ، لا بد أنه صرفه الآن ..

عضضت شفتى وأنا أسأل :

ـ هل تذكر ملامحه جيدًا .. سيد (سالم) ؟!

ـ بالطبع يا ابنتى ..

ـ صفه لى إذن ..

ـ إنه كآلاف الزبائن الذين نراهم كل يوم ، لا يحمل أى علامة تميزه !

برق فى ذهنى خاطر مفاجئ ، فسألته :

ـ ومتى كان هذا ، سيد (سالم) ؟!

ـ بالأمس يا ابنتى ..

لماذا يشعرنى الجميع بكونى مبهمة الألفاظ ؟! عدت أفسر :

ـ أعنى كم كانت الساعة وقتها ؟!

ـ آه .. كانت الثامنة مساءً ..

ـ تمامًا ؟!

ـ أجل ، لقد دقت الساعة فور دخوله ، وأنهيت كتابة الشيك له بعد حوالى النصف ساعة ، ثم ...

ـ ... ثم سألك عن هاتف قريب !

ـ حقًا ، هذا ما حدث تمامًا .. أخبرته أنه يستطيع استخدام هاتف المحل .. فدخل غرفة المكتب هذه وأجرى مكالمة ما ، لم أسمع منها شيئًا !

نعم ، سيد (سالم) .. لقد كان يكلمنى أنا ..

إنه السيد (س) ، لا ريب فى ذلك !

ـ ولكن كيف عرفت ما سأل عنه يا ابنتى ؟!

كان هناك خاطر مفزع ينمو وينمو فى خيالى ، أسرعت بكبته مؤقتًا وأنا أقول :

ـ لا عليك ، سيد (سالم) .. كان محض استنتاج .. لكن أخبرنى .. كيف تمت سرقة العُقد ؟!

ابتسم وهو يقول :

ـ ستكونين صحفية لامعة ، إنك تسألين عن التفاصيل التى ينساها الجميع برغم كونها الأكثر إثارة .. حسن ، لقد تمت السرقة يا ابنتى عن طريق هذا ..

أخرج من الخزانة المعدنية نسخة طبق الأصل من العُقد الماسى الذى يتلألأ بالبريق ، ووضعه بجوار العُقد الأصلى ، قائلاً :

ـ لقد استبدلو به فى غفلة منى هذه النسخة المقلدة التى لاتساوى إلا قروشًا قليلة !

أخرج من الخزانة المعدنية نسخة طبق الأصل من العُقد الماس
الذى يتلألأ بالبريق ، بجوار العُقد الأصلى ..

ـ ألا تعرف من الذى استبدله تحديدًا ؟!

هرش فى رأسه وهو يجيب ناقلاً بصره بين العقدين :

ـ لم يره ، قبل اكتشافى لزيفه ، سوى عدد محدود من الزبائن ، منهم رجل أعمال شهير ، وفنانة نصف مغمورة ، وطالب فى كلية الطب يزعم أنه بصدد الخطوبة ، و ...

لم أسمع باقى حديثه ..

كان هذا يكفينى تمامًا .

★ ★ ★

غادرت المحل وقد اختمرت فى رأسى الفكرة المرعبة ..

لقد فرض السؤال نفسه علىّ وأنا أحدق فى العُقد الأصلى ..

لماذا يقتل (عاطف) صديقه ما دام العُقد ليس فى حوزته ؟!

وما دام لن يناله من أمر كهذا إلا الإعدام شنقًا ؟!

ثم ولد السؤال الآخر تلقائيًا :

ـ إذا كان (عاطف) لم يقتل ، فمن القاتل إذن ؟!

كل البراهين روافد تصب فى مجرى إجابة وحيدة : إنه السيد (س) المزعوم هذا !!

إنه يعرف كل شىء ويتواجد فى كل الأماكن ، وكالزئبق يفر بسهولة ولا يمكنك أن تمسكه بيدك ..

ولنتصور السيناريو فى بدايته مع تعديل طفيف يقتحم فيه السيد (س) مجرى الأحداث .. لقد كان يعرف كل شىء ويتابع كل خطوة ، ويقرأ أفكار الجميع ، ويعيش تحت جلودهم كأنه القدر ..

سرق (وليد) العُقد وخبأه فى جمجمة التشريح ، وكان السيد (س) يعلم هذا ، فتسلل بطريقة ما ، وسرق العُقد من داخل الجمجمة ، وهو يضمر فى نفسه أن يتخلص من الذى سرقه ، ربما عملاً بمبدأ العدالة الشاعرية الذى حدثنى عنه ..

السارق يقتل ؟! يا للبشاعة !

المهم أنه لينفى عن نفسه كل الشبهات ، ترك الأمور تتصاعد بين الصديقين حتى ترك (عاطف) الشقة ـ بشهادة البواب ـ وهبط إلى سيارة (توفيق) مغادرًا المنطقة كلها .. وهنا تبدأ حيلته الشيطانية اللعينة ..

كان (وليد) ما يزال حيًا يرزق بعد نزول (عاطف) ، وتسلق السيد (س) مواسير البناية ليدخل الشقة عبر الشرفة الخلفية ، وباغت (وليد) بسكين غرزه فى رقبته بطريقة فنية ليمنعه من الصراخ ، فخر (وليد) صريعًا على الفور ، وهكذا تمت أركان الجريمة ..

وضع بعد ذلك الورقة الحائة على البحث عن المرأة فى إطار لوحة الهيكل العظمى ، وبدأ يلهو بى عبر الاتصالات

الهاتفية ، كل هذا حتى يبعد أى شبهات قد تحوم للحظة حول شخصه المجهول !!

وفى النهاية خرج رابحًا مكافأة العثور على العقد المسروق .. مائتى ألف جنيه عدًا ونقدًا .

يا إلهى !

ـ ... ألا يذكرك هذا بشخص تحبينه ؟!

ـ (آرسين لوبين) !

كلا .. هذا ليس لصًا شريفًا .. إنه لص مخيف .. مريض بالسرقة وسفك الدماء ، سفاح يرتدى عباءة النزاهة والصلاح ، ويحاول أن يبدو بطلاً من أبطال الروايات البوليسية ، يعرف كل شىء ويقودنا رويدًا رويدًا إلى النهاية التى رسمها كمؤلف محترف ..

لكنه ليس بطلاً .. ليس (آرسين لوبين) ولا (روبن هود) .. ليس إلا وحشًا آدميًا يسعى خلف الشهرة وتحقيق الذات المريضة ..

اقشعر بدنى من التفكير ، وفزعت عندما جاءنى النداء من خلفى :

ـ (نسرين) !

التفتّ فى حدة .. ورأيت (هشام) يقف أمامى فى حلته الرسمية ، نفضت أفكارى السوداوية ، وتذكرت أننى يجب أن

أكون غاضبة منه لتصرفه الخشن معى بالأمس ، فعقدت حاجبىَ وأنا أسأله فى انزعاج :

ـ هل تلاحقنى ؟!

ـ كلا .. إنها الصدفة لا أكثر ..

عقدت حاجبىَ أكثر وأنا أسأل :

ـ وما الذى أتى بك إلى هنا ؟!

تنحنح فى حرج ثم قال :

ـ تستطيعين القول إنه اقتناع نسبى بوجهة نظرك ..

نظرت فى ساعة يدى قائلة فى سخرية تمثيلية :

ـ لقد تأخرت يومًا كاملاً ..

هزّ كتفيه قائلاً فى تسليم :

ـ لكنك ضحكت أخيرًا !

ثم عاد الحرج يعتريه وهو يتلعثم ، قائلاً :

ـ و ... يحق لك أن .. أن .. أ .. أعتذر لك عما بدر منى بالأمس !

يبدو كطفل تؤنبه أمه ، فابتسمت على الرغم منى وأنا أقول :

ـ كنت سخيفًا إلى حد لا يُطاق ..

ـ العفو من شيم الكرام ..

عقدت ساعدىَ أمام صدرى وأنا أسأله فى تحدٍّ بيّن :

ـ وما الذى توصلت إليه ؟!

ـ ليس بالشىء الكثير .. إن الأمور تتعقد بشكل غريب .. أخبرينى أنت إن كنت توصلت إلى شىء ..

شعرت بالظفر : أولاً .. كنت فى حاجة للتنفيس عن أفكارى المكبوتة . ثانيًا .. هذان السببان هما ما دعانى لأن أقص عليه كل شىء .

شعرت براحة نسبية بعد أن أفرغت ما فى جوفى من كلمات عالقة ، بينما سألنى (هشام) وقد أحنقه أن يعلم كل هذه الأمور متأخرًا :

ـ ولماذا لم تخبرينى منذ البداية ؟!

ـ ها قد أخبرتك ، فماذا أنت فاعل ؟!

ارتج عليه فلاذ بالصمت ، بينما قلت أنا فى حيرة شديدة :

ـ وبرغم كل ما أخبرتك من استنتاجات ، ما زلت أشعر بأن هناك حلقة ناقصة !

ـ هذا أكيد ، فما زلت غير مقتنع بأمر السيد (س) هذا ..

قلت فى حيرة أشد :

ـ لا أدرى ماذا يمكن أن أفعل ، لقد طرقت كل الأبواب الممكنة ..

ـ نستطيع وضع هاتف منزلك تحت المراقبة ، حتى إذا ما اتصل ثانية ..

قاطعته بقولى :

ـ ومن أدرانا أنه سيفعل ؟ ثم إننى لا أحب الانتظار السلبى ..

بدا أنه تردّد للحظة ، ثم حسم أمره بقوله :

ـ هناك خيار أخير لا أدرى إن كان مجديًا ..

بلهفة سألته :

ـ ما هو ؟!

ـ (عاطف نصر) !

ـ هل أستطع مقابلته ؟!

ـ وقتما تشائين ، فقد خرج صباح اليوم بكفالة مالية ..

ـ هذا رائع .. سنتجه إليه الآن .. فورًا ..

وأطاعنى (هشام) دون مناقشة هذه المرة ..

★ ★ ★

٧ ـ رجـــل فى وهـــم ..

لن يتمخض لقائى الثانى بـ (عاطف) عن الكثير ، هذا كنت أعلمه جيدًا ..

لكنى كنت مصرة على هذا اللقاء ، (ربما) أخرج بمعلومة ضئيلة ، ملحوظة تافهة ، قول عابر لم يلفت انتباهى فى المرة السابقة ، لعل وعسى أن يكون شىء كهذا هو الحلقة الناقصة التى أبحث عنها ، والتى يكمن فيها حل هذا اللغز المحير ..

ـ لقد دفع عمه الكفالة واصطحبه إلى شقته فى حى .....

إنه أحد الأحياء الشعبية الشهيرة ، وتابع (هشام) :

ـ (عاطف) ريفى الجذور والمنشأ ، لا ترتبط أسرته الريفية بالقاهرة إلا عن طريق هذا العم الذى نزح إليها فى شبابه ..

سألته :

ـ ولماذا لم يقيم معه (عاطف) ؟!

ـ كان يقيم معه بالفعل حتى تعرف به (وليد) وقررا أن يتشاركا فى السكن ، على أن يكون الإيجار مناصفة بينهما !

كان اللقاء هذه المرة فى شقة العم القاهرى ..

لن أسهب فى وصف الصعوبات التى كابدناها حتى عثرنا على العنوان الصحيح ، ولا الفتور الذى قابلتنا به زوجة العم ، فـ (هشام) ما زال بزيه الرسمى وأنا ما زلت أحمل جهاز التسجيل الصغير ! ولا ذلك الجفاف الذى قابلنا به (عاطف) ..

إنها أمور متوقعة على أية حال ..

ـ هل اشتقت إلىّ لهذه الدرجة ؟!

نفس السخرية الممزوجة بالمهارة ، لم يكفه يوم كامل حتى يتغير !

ـ زيارتنا ودية هذه المرة !

قالها (هشام) ، وردّ (عاطف) دون أن تتغير لهجته :

ـ هذا واضح بدليل ملابسك هذه ..

بصرامة لم تجاوز حاجز الحدة هتف (هشام) :

ـ عندما نحتاج إليك رسميًا نرسل إليك من يأتى بك ، ولا نكلف أنفسنا عناء القدوم إليك ..

لزم (عاطف) الصمت وقد أحس أنه تمادى فى سخريته ، بينما لانت لهجة (هشام) وهو يردف :

ـ صدقنى ، زيارتنا هذه ستوفر عليك متاعب جمة ..

سأل (عاطف) فى جدية :

ـ وكيف هذا ؟!

أحسست أنه الوقت المناسب لأتدخل ، فقلت :

ـ إننا نعلم بأمر العُقد الماسى ..

فأجأه قولى ، فندّت منه كلمة واحدة فجّرها ذهوله :

ـ العُقد ؟!

ضغطت زر التسجيل الأحمر ، ثم قلت :

ـ أجل ، الدافع الرئيسى وراء قتل صديقك ..

نظر إلى الأرض صامتًا للحظات طالت ، فعاد (هشام) يقول :

ـ آثرنا أن نعلم منك التفاصيل أولاً ، قبل تقديم ما لدينا للنيابة !

زفر زفرة عميقة ، ثم قال مستسلمًا :

ـ حسن ، ما دمتم قد عرفتم وحدكم ..

قربت جهاز التسجيل منه لألتقط نبراته الخفيضة وهو يقول مستطردًا :

ـ كان (وليد) قد تغير كثيرًا فى الآونة الأخيرة ، بالتحديد منذ رفض والده رفضًا باتًا أمر ارتباطه بـ (لمياء) الممرضة ، بدا أكثر ميلاً للعزلة والشرود والانطوائية فى الكلية والمنزل أيضًا ، لكنى ظننت أنها حالة عابرة عكستها ظروفه النفسية السيئة ..

وفى يوم سبق الحادث ، أخبرنى (وليد) بعزمه على خطبة (لمياء) فى فترة قريبة ، ولما سألته عن استعداده المادى لأمر كهذا ، أخبرنى أنه مستعد تمامًا ، ظننت أن والده قد قبل الأمر أخيرًا ، لكنه نفى ذلك ، وقال إنه سيعتمد على نفسه كلية ، قلت له إنه ما زال طالبًا ، رد بهدوء ، قائلاً :

ـ لن يمنعنى هذا من أن أقدم لها شبكة من الماس الخالص !

ظننت أنه يمزح ، فلم أجاره فى الحديث أكثر من ذلك ..

حتى جاء اليوم المشئوم ..

صمت قليلاً كأنه كان يغالب الذكرى الأليمة ، ثم استأنف ، قائلاً :

ـ لم أكن قد سمعت عن العُقد الماسى قبل هذه الليلة ، لقد صعدت حاملاً طعام العشاء ، وفور دخولى قابلنى (وليد) بعاصفة هوجاء من الصراخ الثائر ، كان يهتف بحديث غير منظم مشيرًا إلى جمجمة التشريح ، وذكر كلمة عُقد الماس أكثر من مرة ، حاولت تهدئته وامتصاص غضبه ، لكن لم تنمة منى كانت وقودًا مصبوبًا فوق الأتون المشتعل ..

أكملت أنا :

ـ ثم قذف بالجمجمة فى خضم الغضب ..

ـ لولا انحنائى السريع لأصابتنى ، لكنها أصابت الزجاج فحطمته ..

أما الباقى فأنتم تعرفونه !

سألته وقد أشفقت عليه من الحزن الذى اعتراه :

ـ ولماذا أخفيت هذا الأمر فى التحقيق ؟!

رفع رأسه ، قائلاً فى ثبات :

ـ لم أكن أبغى تدنيس اسم صديقى بعد قتله غدرًا .. سيقولون إنه سرقه ، وربما تحاك حوله شائعات لا أول لها ولا آخر ..

قال (هشام) فى رزانة :

ـ لا يوجد أى مبرر لإخفاء الحقيقة عن العدالة .. سيد (عاطف) ..

قال (عاطف) فى عناد :

ـ لم يكن هذا ليفيدكم فى شىء ..

بنفس الرزانة قال (هشام) :

ـ أنت واهم .. أى تفصيلة صغيرة قد تحمل فى ثناياها معنى كبيرًا ، قد لا نلتفت إليه ، فما بالك والأمر يتعلق بجزئية خطيرة كهذه ؟!

لم تعد فـى (عـاطف) قدرة علـى العنـاد ، فـلاذ بـالصمت ، بينما تابع (هشام) :

ـ ستتجه غدًا إلى النيابة لتعيد عليهم ما قلت لنا :

ـ هزّ (عـاطف) رأسـه ببطء دون أن ينبس ببنـت شـفة ، بينما تذكّرت أنا أمرًا فقلت :

ـ أواثق أنت من أنك لم تسمع عن أى عُقد ماسـى قبـل ليلـة الحادث ؟!

بدا كأنه يعتصر أفكاره ، ولما لم يجـد فـى ذاكرتـه أى شـىء قال فى ثقة :

ـ أجل .

ـ ولا حتى عن عُقد مزيف ؟!

ـ مزيف ؟!

ـ نعم .. صنعه زميلكم (سامح معوض) لـ .....

قاطعنى سائلاً :

ـ من (سامح معوض) هذا ؟!

فاجأنى سؤاله ، لماذا اعتبرت أمر معرفته به من المسـلمات المنطقية ؟!

ـ زميلكم فى الكلية ..

ـ لا يوجد من يحمل هذا الاسم فى كلية الطب كلها !

بدأ خاطر مفزع آخر يولد فى رحم أفكارى .. لكنى لابد أن أتأكد ..

ـ ربما لا تعرفه أنت لأنه يسبقك بسنة دراسية كاملة !

قال فى إصرار :

ـ مستحيل ، أنا أعرف طلبة الكلية فردًا فردًا ، اسـألى أمينًـا قديمًا لاتحاد الطلاب !

تبادلت نظرة قلقة مع (هشام) ..

لكن ترى ..

هل فهم ما أعنيه ؟!

★ ★ ★

[كنت زميلاً لـ (وليد) فى كلية الطب] .

[برغم أنه كان يسبقنى بسنة دراسية كاملة] ..

[جاءنى (وليد) مع فتـاة قـال إنهـا خطيبتـه ، وقدمهـا لـى باسم (لمياء) ، وكان .....] ..

يا لغبائى ! كيف لم أنتبه لهذا التناقض البسيط ؟!

كيف يكون زميله فى نفس الكلية ـ وبالتالى نفس المستشفى الجامعى ـ ولا يعرف أنه يحب (لمياء) الممرضة ؟!

لكنى ما زلت فى حاجة لأن أتأكد ..

ربّاه ! تكاد أنفاسى تتوقف من هول ما أفكّر فيه ..

★ ★ ★

ـ لا تحوى سجلات الطلبة فى أى سنة دراسية اسمًا كهذا !

أغلق الموظف دفتر القيد العريض ، وهو يتثاءب فى إرهاق ، ثم يرمقنى بنظرة كراهية ، فقد جعلته يتأخر حتى الساعة السادسة مساءً لمراجعة الدفاتر كلها !

كان هذا يعنى أن ما أفكّر فيه صحيح .. ولو بصورة جزئية !

عذرًا للتأخير الذى تسببت لك فيه !

ـ لا عليك ..

قالها كأنه يقول : تبًا لك .. أو كأنه يرمينى بسبة بذيئة !

تجاهلت هذا ونهضت تاركة إياه ، وبينما أرمق حمرة الشفق ، كانت الفكرة قد تبلورت فى عقلى إلى حد كبير .

للغاية ..

★ ★ ★

(س) هو القاتل ، والقاتل لا يستحق أن يسبقه لقب (السيد) !

والأدهى أن (س) ، هو بعينه (سامح معوض) !

« لم ألاحظ أنه اختار رمزه الحرفى ليجعله الحرف الأول فى اسمه المستعار إلا الآن ، يبدو أنه نوع ثقيل من النرجسية ، أو الذات المتضخمة ! »

هل فاجأكم هذا ؟! لا أعتقد .

لقد أصبحت العبثية معقولاً ، والعكس أيضًا صحيح !

إن قلبى يكاد يقفز خارج صدرى هلعًا ، كلما تخيلت نفسى جالسة مع قاتل سفاح فى مكان واحد ، لا تفصلنا سوى سنتيمترات عديدة !

لماذا إذن لم يبد كذلك ؟!

لماذا بدا إنسانًا عاديًا هادئًا غرضه المساعدة بما لديه من معلومات لا ينصت إليها أحد ؟! لماذا ؟!

تتحدث كل الروايات البوليسية ـ بل وكتب علم النفس الإجرامى أيضًا ـ عن كيف أن القاتل ، أى قاتل ، لا يبدو وغدًا أشعث الشعر طليق اللحية أحمر العينين يمسك فى يده سكينًا يقطر نصله دمًا ، وكيف أنه إنسان عادى ودود فى كثير من الأحيان .. لا يختلف عن أى صديق حميم أو قريب من الدرجة الأولى أو جار قديم ..

لكنى لم أتصور أبدًا أن يبدو عاديًا إلى هذا الحد !

إن (س) هو القاتل ، أجزم بهذا ..

لقد بدأت علاقته بالجريمة قبل ليلة القتل بكثير ، منذ أن تعرف إلى (وليد) وقاده بخطة جهنمية محكمة ليسرق العُقد الماسى ، ثم يقتله ويقبض هو مكافأة استعادته ، ويبدو فى النهاية حملاً وديعًا لا هم له إلا تحقيق العدالة !

إن (س) خطر جسيم ، أجزم بهذا أيضًا ..

يرى أبعد من زرقاء اليمامة ، يظهر ويختفى فى الأوقات المناسبة تمامًا ، بالثانية ، وهو ممثل محترف ، وقاتل بارع ، ومراوغ داهية ، والأدهى أن أحدًا لا يعلم عنه شيئًا ، بينما هو يعرف عن الجميع كل شىء ..

إن (س) يرانى الآن ، أكاد أجزم بهذا .

إنه يعرف ما أفكر فيه ، يعرف أننى أعرف أنه الفاعل الحقيقى ، وربما عرضنى هذا للانضمام إلى قائمة الأموات التى يحملها ملاك الموت ، الاسم الثانى لـ (وليد يسرى) فى القائمة الخاصة لضحايا السيد (س) !

فماذا أستطيع أن أفعل سوى الانتظار ؟!

كلا .. فما زلت أمقت هذه اللعبة ، ولن أكتفى أبدًا بدور الفأر الذى ينتظر انقضاض القط لافتراسه فى أية لحظة ..

لقد رأيته ، وجلست معه ، وحادثته ، مثلما فعل (وليد) .. ومثلما .....

نعم .. هذا هو الخيط الوحيد الباقى ..

خيط واه ، أوهَى من شعرة مشدودة ـ تشبيه لا بأس به من (هشام) بالنظر إلى وظيفته الأمنية ـ لكنه أفضل من الانتظار ..

كان الظلام قد حل ، وبدأ زحام ليل (القاهرة) ، ورأيت هاتفًا عموميًا عند نهاية الرصيف عرفت أننى سأستخدمه ..

★ ★ ★

[نص مكالمة هاتفية مع (هشام) فى مكتبه ـ ليس فى حاجة لأى تعليق] !

أنا : آلو ..

(هشام) : أتمنى أن تكونى قد عدت للمنزل !

أنا : ليس بعد ..

(هشام) : لماذا ؟! هل مازلت فى مكتب شئون الطلبة ؟!

أنا : كلا ، إننى أحادثك من هاتف عمومى ..

(هشام) : وماذا كانت النتيجة ؟!

أنا : إيجابية ، إنه هو .. فلا يوجد أى (سامح معوض) فى أى سنة دراسية ..

(هشام) : حقًا ؟!

أنا : لكنى أحتاج لتأكيد أخير ..

(هشام) : ماذا ستفعلين ؟!

أنا : (متجاهلة السؤال) اسمعنى الآن قبل أن ينتهى الوقت الذى تسمح به العملة المعدنية ، اتصل بوالدى فى المنزل والمستشفى وأخبره أننى سأتأخر اليوم أيضًا ، لكنها ستكون المرة الأخيرة ..

(هشام) : ماذا ستفعلين ؟! أخبرينى ..

أنا : أرجوك لا تنس أن تخبره ..

(هشام) : سأفعل ولكن أخبرينى ..

أنا : حسن ، سوف ..

(نغمة متقطعة تفهم معناها جيدًا)

★ ★ ★

(لمياء الفيل) هى الخيط الوحيد الباقى ..

لقد رأته ، وحادثته ، وربما تعرف أشياء تقودنا إليه .. سأستطيع التأثير عليها بصفتى البوليسية النسائية الكاذبة ..

إننى لا أعرف عنوانها ، لكنى أعرف على الأقل أنها تعمل ممرضة فى المستشفى الجامعى ، والبحث عنها هناك لابد أن يؤدى للنتيجة المرجوة ..

فإلى هناك ..

أنا لا أحب المستشفيات ، برغم أُلفتى بجوها نظرًا لعمل أبى ، لكنى أكره هذا الجو المشبع برائحة (السافلون) ، واللون الأبيض فى الشاش والمعاطف والأكفان المتحركة ، بل والإضاءة النيونية أيضًا !

لكن المضطر يركب الصعب ، لذا تقدمت بخطى ثابتة الجنان نحو مكتب الاستقبال لأسأل عن (لمياء الفيل) وعلى شفتى ابتسامة جذابة ..

ـ إنها غير موجودة ، لم تبدأ ورديتها الليلية بعد ..

أجابت فتاة الاستقبال البشوشة الملامح .. فسألتها مجددًا :

ـ ومتى تبدأ الوردية ؟!

نظرت فى أوراق عديدة أمامها ثم أجابت :

ـ فى غضون ساعة على الأكثر ..

ـ أعتقد أننى أستطيع أن أنتظرها !

ـ على الرحب والسعة ..

وأشارت نحو المقاعد البلاستيكية (البيضاء هى الأخرى !) دون أن تفقد بشاشتها ، أحب هذا الصنف من البشر الذى لا يفقد بسمته أبدًا !

إن لعبة الانتظار تفرض علىّ نفسها ، لكنه انتظار إيجابى على الأقل !

وجلست وأنا أغض بصرى وأصم أذنىّ عن تلك المشاهد المؤلمة والتأوهات المتألمة ، التى تزيد من مشاعرى تجاه المستشفيات مقتًا فوق مقت !

ومضى الوقت ..

وكادت الستون دقيقة تنتهى دون أن تظهر (لمياء) ، وبدأت أتململ فوق مقعدى ، وموظفة الاستقبال تهز كتفيها بمعنى لا أستطيع أن أفعل شيئًا ..

ثم .. ظهرت (لمياء) فى النهاية ..

نهضت وأنا أرسم فوق شفتى بسمة أخرى ، فيها من الاصفرار أكثر مما فيها من الجاذبية ، بينما بهتت (لمياء) تمامًا لمرآى ..

وقفت متسمرة فى مكانها للحظة ، ثم .....

ثم انطلقت تعدو فى أحد الممرات الجانبية الواقعة قبل بهو الاستقبال !

استغرقت لحظة لاستيعاب الموقف ، وتبادلت نظرة لا معنى لها مع فتاة الاستقبال ، التى حل الذهول فى وجهها محل البشاشة ، ثم أطلقت ساقى للريح لأعدو خلفها فى الممر الذى ابتلعها داخله ..

لمحتها عند آخر الممر الضيق ، فحاولت زيادة سرعتى .. لكنها انعطفت فجأة ، وعندما اتخذت نفس المنعطف ، كانت قد اختفت ..

لكنى أعلم بالتأكيد أين ذهبت ، فلا يوجد فى نهاية المنعطف سوى هذا السلم الذى تفضى درجاته للطوابق العلوية !

وقفزت بأقصى طاقتى فوق الدرجات ، وأنا أسمع لهاث (لمياء) قادمًا من أعلى ، وعند الطابق الثالث كنت أعدو خلفها مرة أخرى بين الممرات المتشعبة ..

ويا له من منظر قد يثير ضحكى شخصيًا لو كنت مثلكم بين مقاعد المتفرجين !

إنه أشبه بمطاردات الكارتون ، حيث ندخل من جهة فنخرج من الأخرى ، هكذا دواليك ، حتى اختفت (لمياء) فى النهاية ..

شعرت بيد تلتف حول عنقى ، وبكمامة توضع فوق أنفى ..

تمامًا هذه المرة ..

وقفت ألهث وأنا أبحث عنها حيث انعطفت آخر مرة ، لم يكن هناك سوى أبواب ثلاثة ، اجتازت أحدها دون ريب ..

ولكن أيها ؟!

لا سبيل للمعرفة سوى اختبارها الواحد تلو الآخر .. ولنبدأ بالأقرب ..

مددت يدى نحو المزلاج ، وقبل أن ألسمه ، شعرت بحركة من خلفى ..

ولأننى لست إحدى بطلات الحركة ذوات الاستجابة الخارقة للمؤثرات الخارجية ، لم أنجح فى الالتفات فى الوقت المناسب ..

شعرت بيد تلتف حول عنقى ، وبكمامة توضع فوق أنفى ، وقبل أن أنجح فى المقاومة ، كانت الدنيا قد أظلمت تمامًا أمام ناظرى ..

ماذا يسمون هذه الحالة ؟!

آه .. تذكّرت ..

إنه فقدان وعى .

★ ★ ★

٨ ـ ميـــلاد بطـــل ..

يا للصداع اللعين !

كم مرَّ من الوقت وأنا غارقة فى مساحات السواد اللانهائية ؟! لا أدرى ..

لكنى فتحت عينى بصعوبة وأنا أحاول استبيان حقيقة الموجودات من حولى ..

الرؤية مشوشة ، لكنها تتحسن مع بعض المجهود الذهنى ..

لكن هذا الصداع اللعين !

حسن ، هأنذا أرى ، إنها غرفة ضيقة ، ينيرها مصباح نحاسى كهربى فى منتصف سقفها المنخفض قليلاً ، ولأنه متسخ بروث الذباب وبغبار لا ينظف ، فهو يلقى بظلال شاحبة كئيبة على هذه الغرفة الموحشة ..

ماذا أيضًا ؟! المروحة التى تدور أذرعها ببطء ، تعطى هى الأخرى انطباعًا مرعبًا ، ظلال متحركة فوق السقف !

ماذا أيضًا ؟! سريران ، أحدهما خال تمامًا ، والآخر ترقد عليه فتاة ـ هى أنا !! مقيدة بحيث لا تقوى على الحراك ،

خاصة مع ذلك الخوَر الذى يكتنف كل ذرة فى جسدها ، وذلك الصداع اللعين !

بدأت أستعيد حاسة الشم ، رائحة المستحضرات الطبية تعبق جو الغرفة الخانق ، إن مصدرها قريب .. تحت تلك المنضدة التى تتوسط المسافة بين السريرين ، إنها سلة مهملات تطفح بالمخلفات الطبية الفارغة والمستعملة ، زجاجات أدوية ، أشرطة أقراص ، كبسولات مفرغة حواشيها ، حقن .. وخلافه ..

أستطيع تحريك رقبتى ، هذا حسن ، لكنى لا أستطيع احتمال هذا الصداع اللعين ..

صوت الباب يفتح ، أعصابى السمعية تستعيد نشاطها إذن ، لكن الرؤية مازالت سيريالية ، شبح متشح باللون الأبيض ..

ـ رائع ، لقد استيقظت فى الميعاد المحسوب تمامًا ..

ذاكرتى تعمل أيضًا ، إنه صوت (لمياء) ، وصورتها تتضح مع اقترابها البطىء ..

ـ هذا معناه أن نشاط الكبد عندك ممتاز ..

ما الذى يحدث ؟! لا جهد للتفكير .. كل ما خطر لى أن أسأل عنه هو الوقت .. متى يحدث كل الذى يحدث هذا ؟! لكن هل يستطيع لسانى أن يتحرك ؟!

ـ ك ... كم ... الس ... س ...سا ... ع ... عة ؟!

لا بأس كبداية !

ـ إنها الثالثة صباحًا !

ـ س .... س ..

رفعت شيئًا ما من فوق المنضدة وقربته أمام عينيها وهى تتابع معتبرة كل ما أتفوه به هذيان التخدير :

ـ ما دمت أنت الأثر الأخير فلا بد من محوك أنت الأخرى ، لقد كنت أستطيع فعلها وأنت تحت تأثير (المورفين) ، لكنى رأيت أن أهنئك على ذكائك قبل مغادرتك عالم الأحياء .. وأن أطلعك على مصيرك ، هذا حقك الكامل ..

مصيرى ؟! ماذا تقصد هذه المرأة ؟!

ـ لقد دخلت المستشفى صباح اليوم مريضة فى حالة متأخرة من التسمم بالفوسفات العضوى ، عرق ودموع وضيق حدقة العين وصعوبة فى التنفس وانخفاض فى ضغط الدم وعدد ضربات القلب ، وبرغم كل محاولات إنقاذها بالأتروبين والتنفس الصناعى ، إلاَّ أنها لقيت حتفها على الفور .. مسكينة ..

ثم سمعتها تردف فى جذل مرضى :

ـ لكنها طريقة أنيقة للموت على ما أعتقد ..

ماذا تقصد هذه المرأة ؟! هل تعنى أنها ستقتلنى بنفس الطريقة ؟!

شعرت بالفزع برغم أن الحذر ما زال يسرى فى دمائى .. ولم أقو على التفوه بحرف واحد ..

ـ لقد كانت المرأة بلا أقارب ، وجدت جثتها على هذه الحال ، ولم ترد أى بيانات بشأنها ، وجثة بهذه المواصفات طريقها معروف ..

مشرحة كلية الطب ..

يتعاظم الفزع فى أعماقى ويزيد من أثر الصداع اللعين !

ـ أعتقد أنه مصير مناسب ، سأبدلك بجثتها ، فتهبطين إلى ثلاجة المشرحة بسلام ، أمامى ، فلا بد أن الزملاء قد اختطفوها الآن .. أتعلمين ؟!

مازال طلبة الطب يدفعون مبالغ طائلة للعينات البشرية الخاصة !

ثم قربت وجهها منى لأشعر بأنفاسها الكريهة تضرب وجهى ، وهى تضيف :

ـ وهكذا يتم القدر سخريته ، وتصبح ابنة الجراح الأشهر جثة على منضدة التشريح ليدرس عليها جراحو المستقبل !

أغمضت عينى محاولة طرد الصورة المفزعة ..

هل تخيل أحدكم نفسه من قبل ، جثة على منضدة التشريح ؟!

أبعدت وجهها أخيرًا ، وفتحت عينى من جديد لأراها تضع ما بيدها وتمسك شيئًا آخر .. (إنها محاقن مليئة بسوائل طبية كما يتضح تدريجيًا) ، وتابعت عرضها المسرحى المرعب :

ـ لكن لا تقلقى ، فما زال فى قلبى قليل من الرحمة ..

فى ظروف أخرى كنت سأقفز من فوق فراشى مفزوعة ، لكنى غير قادرة على القفز أو الفزع !

حاولت استخدام لسانى مرة أخرى لأقول :

ـ شر ... شرط ... شرط ... ة ... إ ... ن ..

كنت أريد أن أقول لها إنها تعرض نفسها للمساءلة الجنائية باعتدائها على ضابطة شرطة فى أثناء تأدية عملها ! لكن أدائى لم يكن موفقًا !

بالتأكيد هزت رأسها ـ لكنى لم أر ذلك بوضوح ـ وهى تقول ساخرة :

ـ كم تبعد أكاديمية الشرطة عن كلية الإعلام ؟!

لقد عرفت إذن كل شىء !

قالت وهى تقرأ من شىء ما فى يدها ، فهمت فيما بعد أنه كارنيه الكلية :

ـ (نسرين فاروق الجبالى) .. الفرقة الرابعة .. أنت إذن ابنة الدكتور (فاروق الجبالى) .. هذا يفوق خيالى ، بل وقدرتى على التخيل .. أتعلمين أنه كان حلمًا من أحلامى أن أعمل فى مستشفى أبيك ؟!

أريد أن أفهم ، لكنى لا أملك القدرة على السؤال ..

ما الذى يحدث هنا بحق السماء ؟!

ـ م ... ما ... ذ ... ذا ... ؟!

هذه كل قدرتى الحالية ، ولأنها لم تفهم ، فقد تابعت وهى تعبث بأشياء ما فوق المنضدة القريبة :

ـ لكنك عبقرية مثله ، فقد توصلت فعلاً للقاتل الحقيقى !

نعم ... السيد (س) ... ولكن ما علاقتها هى بالأمر ؟!

لو كانت هى نفسها السيد (س) فالأمر سيبدو دعابة لا تضحك أحدًا !

ـ مع أننى كنت حريصة على محو كل الآثار المتعلقة بى ليلتها !

صدق حدسى ، إنها هى ، هو ، هما ... !

إنها فعلاً دعابة لا تضحك أحدًا ، خاصة لـو كـان لـهـا القـدرة على أن تقنعنى بكونها (سامح معوض) بينما المباحث تستجوبها بالأعلى !

شريك لها للتغطية ؟! لم لا ؟

قد أستطيع التفكير بصورة أفضل لو تخلصت من هذا الصداع اللعين !

ـ إنك ... إنك ...

كلمة من مقطع واحد ... إنى أتحسن !

ـ لا أعتقد أنك أبلغتِ أحدًا بعد ، وإلاّ لوجدت رجال الشرطة فوق رأسى بالفعل ... وهذا قطعًا من حسن حظى ...

لكنها ... أوقفت الحقن ولم تفرغ نصف السائل بعد ..

فقد انفتح باب الغرفة فجأة ، وظهر شخص ما عند عتبة الباب ..

لم أتبين ملامحه قط ، كان ظلالاً رمادية متداخلة ومتماوجة ، لقد بدأ تأثير المخدر يسرى فى عقلى المخدَّر أصلاً ..

حاولت التشبث بوعيى قدر ما استطعت ، لكن المخدر هزمنى ..

وكان آخر ما سمعته قبل الغيبوبة الثانية (لمياء) وهى تهتف :

ـ من أنت ؟! وكيـ .... ؟!

ثم السواد اللانهائى العظيم ..

★ ★ ★

منطقة المطلق ..

لا الأرض تحت قدمى ، ولا السماء فوق رأسى ..

خفيفة كالريشة ، أسبح بذراعىّ فى فراغ مهول ، أرتقى سلمًا بلا درجات ..

أطير كالعصافير ..

ثم أتوقف مبهوتة ، عندما أراه واقفًا فى آخر المدى ..

ظل رجل .. أو الرجل الظل .. أو الرجل الغارق فى الظل ..

لن يستطيع الوصف أبدًا نقل نصف الحقيقة ..

أهتف فى حنق :

ـ قاتل ..

وتأتينى الإجابة التى لم يقلها ..

ـ لم أقتل أحدًا غير نفسى ..

يسبقنى عنادى فأسأل :

ـ (وليد) ؟!

ـ قتلته الهرولة خلف السراب البعيد ..

ـ و (لمياء) ؟!

ـ ستنال عقابها ..

مقتنعة تمامًا ببراءته ، حتى وأنا أوجه إليه الاتهام ..

بحنان خفى النبع أسأله :

ـ وأنت ؟!

ـ سأكون دائمًا إلى جوارك ..

مازالت ملامحه مبهمة ، غارقة فى بحر الظلال ..

هذا واضح !

ـ إننى دائمًا أختار وسائل القتل بدون ألم .. مثلما فعلت مع (وليد) ليلتها .. لقد كان فتى طيبًا ولطيفًا ، لكنه كان حالمًا أكثر من اللازم .. كثيرًا ما أضجرنى بأحلامه ، لكنى احتملته كأم وجب عليها احتمال طفلها المزعج .. لكن الأم لابد أن تعاقب ابنها عندما لا يجيد الحفاظ على ممتلكاته .. فما بالك لو كانت هذه الممتلكات عقدًا من الماس ؟!

ألا يستحق هذا أن تقتل الأم ابنها بسببه ؟!

يقشعر بدنى لسماعها ، إنها مخبولة تمامًا ، مريضة لحد التداعى ..

ـ سكين فى الفقرات العنقية ... ثم ... تك ...

لا تقدر الأم على رؤية ابنها يبكى ، فماذا لو رأته يحتضر ؟!

وعاد الجنون يلهو بنبرات صوتها وهى تهتف ضاحكة :

ـ لكنها كانت طريقة مبتكرة ، تحتاج لدقة ومهارة عالية فى التنفيذ .. أتعلمين ؟! لو كان القدر عادلاً لأصبحت طبيبة شهيرة لا مجرد ممرضة يلهو طلبة الطب والأطباء بمشاعرها .. ثم ساد الصمت قليلاً ، ورأيتها تقرب محقنًا من ذراعى المقيد وهى تقول :

ـ لن تشعرى بشىء ، إن التخدير اختراع مدهش .. سأخدرك فلا تشعرين بأى من تلك الأعراض الرهيبة للتسمم بالفوسفات العضوى ..

ثانية ؟! كلاَّ ..

تبًا لك وللمخدر وللفوسفات العضوى وللصداع اللعين !

ـ هيا يا صغيرتى ، لن تشعرى بأكثر من وخزة الإبرة ..

يلامس السن المعدنى جلدى ..

ـ لا ... لا ... لا ...

ـ الصغيرة ترفض أخذ الدواء ، ياللعار !

يخترق السن المعدنى جلدى ..

ـ لا ... لا ... لا ...

- هيا وإلا أخبرت أباك ليعاقبك !

يندفع السائل فى عروقى ..

- لا ... لا ... لا ...

- ستنامين الآن نومًا هادئًا هنيئًا يا محبوبتى الأثيرة !

الصداع يتحول إلى ضباب يغشى كل المرئيات أمامى ، عقلى يغوص فى محيط الفراغ الكونى الهائل الممتد ..

لم يكن جسدى قد برأ من التخدير الأول بعد ، وها هو ذا يخور ثانية ..

- إلى اللقاء يا (نسرين) ..

أتشبث بحبال الأمل الأخير ..

- انتظر .. من أنت ؟!

- إلى اللقاء يا (نسرين) ..

ويتردد الصدى فى أعماق المستحيل .

(نسرين) ..

(نسرين) ..

(نسرين) ..

* * *

- (نسرين) .. (نسرين) ..

عدت إلى الوعى دفعة واحدة ، لأجد نفسى فى حالة صفاء ذهنى كامل ، كأننى أنهض بعد قسط وافر من النوم نشيطة مقبلة على الحياة ..

كان صوت (هشام) هو أول ما سمعت ينادينى باسمى ..

- حمدًا لله يا دكتور ، لقد عادت للوعى ..

أبى فى ملابسه ومعطفه الطبى ، سألت وأنا أنظر لهما فى غير فهم :

- أين أنا ؟!

قال والدى مداعبًا - لكن الإرهاق والقلق بددا الكثير من بهجة دعابته :

- فى بيتك الثانى !

يقصد إحدى غرف المستشفى الخاص به ، هذا واضح ، ولكن ..

ساعة الحائط تشير للثالثة ، والشمس تظهر بوضوح من خلف النافذة !

- هل معنى هذا أننى نمت اثنتا عشرة ساعة كاملة ؟!

هز (هشام) رأسه موافقًا ثم قال :

ـ هذا صحيح ..

لماذا يعطوننى هذه الإجابات المقتضبة ؟!

أحتاج لشرح وافٍ وكامل لكل ما حدث منذ ..

يا إلهى ! هل مررت بهذه التجربة الرهيبة حقًا ؟!

ـ ماذا حدث ؟!

انشغل أبى بمراجعة تقارير الفحص ، بينما قال (هشام) هازًا كتفيه :

ـ الكثير ، لقد اتضحت براءة (عاطف) و (توفيق) من قتل (وليد) ، وعثرنا على القاتل الحقيقى وقبضنا عليه بالفعل ، وأدلى باعتراف مفصل بجريمته ..

بلهفة سألت :

ـ السيد (س) ؟!

ـ كلا .. إنها (لمياء) !

وقبل أن أسأل استطرد شارحًا :

ـ جاءتنا فجرًا مكالمة هاتفية من مجهول تبلغ عن وجُودِك مقيدة باحدى غرف الطابق الثالث من المستشفى الجامعى ، كنا قد قلبنا العاصمة بحثًا عنك طوال الليل ، لذا هرعنا إلى هناك لنجدك كما قيل بالفعل ، ولنجد المفاجأة إلى جوارك ..

(لمياء) مقيدة إلى السرير الآخر ، مخدرة هى الأخرى ولكن بجرعة بسيطة للغاية ، والأدهى أننا عثرنا إلى جوارها على شريط تسجيل يحوى تفاصيل الحوار الذى دار بينكما ، والذى تعترف فيه بجريمتيها .. قتل (وليد) و الشروع فى قتلك أنت .. هذا إلى جوار هذه البطاقة الأنيقة .. ناولنى إياها ، وركضت بعينى فوق كلماتها القليلة .

مع تحيات

(س) فون للتسجيلات

السيد (س)

هكذا يتضح الأمر تمامًا ..

لقد كان السيد (س) بريئًا منذ البداية ، وكانت (لمياء) هى الفاعلة التى كادت تمضى بجريمتها لولا كشفه لها بدهاء حقيقى يحسد عليه ..

ثم إنه أنقذ حياتى ، لا بد أن أعترف بهذا ..

لولا وجوده لأصبحت جثة محفوظة بـ (الفورمالين) فى ثلاجة المشرحة !

لقد ظلمته كثيرًا .. وعذرى هو جهلى به حتى هذه اللحظة .. لكنى أعترف الآن أنه بطل ، بطل حقيقى يسعى للعدالة ،

ولا يسرق ولا يقتل ، إنه (آرسين لوبين) الآخر الذى يستفيد من كل شىء ، لكنه لا يضر أحدًا ..

أولا يضر إلا من يستحق الضرر ..

وبطرق تعترف بها العدالة ، تمامًا ..

وفى هذا ، جاوز (آرسين لوبين) نفسه !

لقد قبض مبلغًا محترمًا ـ يستحقه تمامًا ـ نظير استرجاعه لعقد ماسى مسروق ..

كيف ؟! وأين ؟! ومتى ؟!

هو وحده يعلم ذلك ..

هو وحده ..

★ ★ ★

ـ هذا جيد يا (نسرين) ..

ابتسمت برغم أنى توقعت ما هو أكثر من الـ (جيد) هذه .. وتابعت السيدة (ألفت) :

ـ فكرة السيد (س) هذه فكرة طريفة ، ولكن ..

ـ إنها ليست محض فكرة ، إنها قصة حدثت بالفعل ..

قالت فى حسم :

ـ هذا لن يقنع أحدًا ..

ما معنى هذا ؟! هل أعجبتها القصة أم ؟!

أجابتنى قبل أن أسأل :

ـ إن الخبر وحده يحمل كمًا لا بأس به من الإثارة .. طالب طب يقتل على يد ممرضة وقع فى حبها ! ولا حاجة بنا لإقحام قصة أخرى فى الخلفية ، ربما أفسدت بريق القصة الأصلية ..

حاولت إقناعها بوجهة نظرى ، قلت :

ـ لكنه كان سببًا أساسيًا فى الكشف عن كثير من غوامض القضية ، ولولاه ..

ابتسمت وقد فهمت ما أرمى إليه ، ثم قاطعتنى بقولها :

ـ أنت إذن تبحثين عن بطل تقدمينه لجمهور صحيفة (الأربعاء) ..

هززت رأسى فى قوة وأنا أهتف فى حماس بالغ :

ـ تمامًا ..

عاودت النظر إلى الأوراق التى كتبت فيها قصتى الأولى ، ثم هزت رأسها وهى تقول :

ـ ربما تصلح هذه الفكرة لسلسلة بوليسية تكتبينها يومًا من الأيام ، لكنها لا تصلح أبدًا لعالم الصحافة ـ فى الوقت الراهن على الأقل ..

لم أفهم ما قصدته بإضافتها عن الوقت الراهن ، لكن الفكرة كانت قد أعجبتنى ..

سلسلة بوليسية أكتبها فى يوم من الأيام ..

لم لا ؟!

ستكون سلسلة مفعمة بالإثارة ، والغموض ، خاصة وأن البطل ـ لأول مرة فى تاريخ السلاسل الروائية الأدبية ـ سيكون مجهولاً للجميع ..

حتى للقراء أنفسهم ..

كانت السيدة (ألفت) تتابع :

ـ اقترح أن تعيدى صياغة الخبر على ضوء ما أفهمتك إياه ..

هززت رأسى فى إذعان ، وأمسكت بالأوراق التى كانت تطالعها ، ووقفت مستعدة لمغادرة الحجرة .

ـ حاولى فى المرات القادمة التركيز على الجانب الإنسانى للقضية ، كأن تقابلى الأب أو الأم مثلاً ، أو تحصلى على إحدى الرسائل المتبادلة بين القتيل والجانية ، أو حتى بمقابلة القاتلة نفسها مع صورة تبدى الندم فى عينيها .. القراء يحبون هذه اللمسات !

هززت رأسى ثانية ، وعادت السيدة (ألفت) تنقل إلى بعضًا من خبرتها العريضة فى عالم الصحافة ، لكن هذه المرة شردت عما تقول ..

كنت أفكر فى تلك السلسلة التى حدثتنى عنها !

بل وأحاول فى خيالى اختيار اسم جذاب لها ..

(البطل الفريد) أو (المغامر الأخير) أو (المدمر العنيد) كلها أسماء مستهلكة ، أستطيع الحصول على دستة منها من فوق أفيشات أفلام الحركة أمام دور عرض الدرجة الثالثة ..

كنت أبحث عن اسم جذاب ، لم يختره أحد ..

[مغامرات السيد (س)] ؟!

لا يبدو اسمًا سيئًا ..

(مغامرات س) ..

هكذا أفضل .. وأكثر إثارة للخيال !

ـ لا تتسمرى هكذا وأعيدى صياغة الخبر بسرعة ، فالجريدة ستمثل للطبع غدًا ، ولا أحب أن أكون متأخرة عن باقى الصحف ..

استأذنت منها فى أدب ، وأسرعت بالمغادرة ..

كان الاسم قد تبلور تمامًا فى مخيلتى ..

(مغامرات س) .

الرجل الذى لا يعرفه أحد !

★ ★ ★

خاتمة

قد تكون ضرورية !

ـ تهنئاتى .. اسمك يضىء صفحة الحوادث !

انساب صوت (هشام) إلى أذنى عبر أسلاك الهاتف ، كان هو أول صوت أسمعه فى الصباح المبشر بيوم جميل !

ـ أشكرك ..

كنت قد قرأت الخبر ، والجريدة ما زالت فى يدى ، وشعورى بالزهو يغمرنى كلما طالعت المانشيت الذى اخترته بنفسى .

(ممرضة تقتل طالب الطب الذى وقع فى هواها)

(سر العقد الماسى المسروق)

ثم الإمضاء ذو البنط الصغير أسفل الخبر (نسرين الجبالى) ..

ـ بالمناسبة ، لقد وضعت هاتف منزلك تحت المراقبة !

فهمت مقصده ، مازال هاجس السيد (س) يطارده كما يطاردنى ، لكنى ..

ـ لا أعتقد أنه سيعاود الاتصال ثانية ..

ـ الحرص واجب ، ثم إننى أتحرق شوقًا لمعرفة هوية هذا الشخص !

ـ ليس أكثر منى .. لا تنس أنه أنقذ حياتى !

غيور (هشام) ، لكنى دومًا أنسى ـ أو أتناسى ـ ذلك !

ـ حسن ، لو حدث واتصل بك فحاولى إطالة الحديث لأكبر وقت ممكن ، ثم ارفعى السماعة بعدها فورًا واطلبى هذا الرقم ..

أملانى إياه ثم تابع :

ـ سيرد عليك عامل الهاتف المكلف بالمراقبة والتسجيل ، ويحدد لك المكان الذى أتت منه المكالمة !

ـ حسن ، سأفعل ..

وانتهى الحديث بيننا ، فأغلقت السماعة وعدت أنظر للخبر المنشور مرة أخرى ..

إنها أول مرة ، وهذا وحده كاف لأن أعيد قراءة الخبر للمرة الألف ، حتى أكاد أحفظه ، ثم أتملى فى اسمى المطبوع أسفل الخبر ، وأحلم به مطبوعًا ببنط أكبر ، ثم أعلى الخبر وأمامه فعل (كتبت) ، ثم يكبر البنط ويكبر حتى تجاوره صورتى وأنا ابتسم فى بلاهة !

فى الحلم يصبح كل شىء مباحًا ، ومشروعًا ..

ارتديت ملابسى ـ فلم يكن فى نيتى إضاعة يوم دراسى آخر ـ ثم جلست أمام شاشة التلفزيون أحتسى فنجان (النسكافيه) ، وأنا أقلب بجهاز التحكم عن بعد فى القنوات الفضائية ..

قناتى المفضلة هى قناة عربية للأخبار .. لا بأس ، إنه برنامج عن المعارض الدولية ..

كان المذيع يقول والكاميرا تنقل صورًا عديدة من وقائع الخبر :

ـ افتتح بالأمس معرض المجوهرات الدولى بمدينة (نيويورك) بقاعة (جريت هول) ، فى أحد أكبر الفنادق هناك .. وهو الملتقى الذى ينتظره عاشقو المجوهرات والأحجار الكريمة ، ويفد إليه الزوار والعارضون من جميع بقاع العالم ..

(موسيقى ناعمة ـ لقطات مبهرة جذبتنى للمتابعة على الرغم منى) ..

وعلى الصعيد العربى ، يشارك بالعرض نخبة متميزة من صانعى المجوهرات العرب ، ومنهم السيد (فهد الغانم) من دولة (الإمارات العربية المتحدة) ، (لبيب يوحنا) من (لبنان) ، (سالم نعيم) من (جمهورية مصر العربية) ، .....

إنه هو بشحمه ولحمه كما رأيته منذ أيام ..

يقف بجوار العقد الماسى المسترجع ..

شعرت بالاهتمام حتى إننى نسيت كوب (النسكافيه) فوق الطاولة ، وقربت وجهى من الشاشة كأننى أتأكد من ملامحه ..

ثم رن جرس الهاتف ..

لا يعنى هذا الرنين المتواصل سوى أن المكالمة آتية من خارج (القاهرة) ..

من يكون ؟! عمى المقيم بـ (الإسماعيلية) ؟! أم .... ؟!

ـ آلو ..

الصوت الغريب الأجش ..

تهنئاتى القلبية ، اسمك يضىء صفحة الحوادث !

صرخت على الرغم منى :

ـ السيد (س) ؟!

وقبل أن يرد كنت أواصل التهانى كالملسوعة :

ـ لقد .. لقد أنقذت حياتى .. أليس كذلك ؟!

ـ رويدًا رويدًا .. لا أسئلة بلا إجابات .

ـ لدى آلاف الأسئلة ..

ـ سأسمح لك بسؤال واحد فقط هذه المرة ..

يا للمأزق الامتحانى اللعين !

ـ حسن .. سؤال واحد ..

ـ أسرعى قبل فراغ الوقت ..

لم يكن هناك سوى سؤال واحد أتمنى حقًا معرفة إجابته :

ـ من أنت ؟!

صمت قليلاً ، ثم أتانى صوته قائلاً فى عمق :

ـ حسن ، لقد وعدتك بالإجابة .

دق قلبى فى عنف ، إننى على بعد خطوة واحدة من حل اللغز الأكبر ، لكنه قال :

ـ أنا .. السيد (س) !

ثم الضحكة الساخرة المجلجلة ، بترتها النغمة المتقطعة المعهودة ..

يا لسخافته ! ويا لغبائى !

ولكن مهلاً .. الرقم الذى أعطانى إياه (هشام) .. أين كتبته ؟!

هناك فوق الجريدة ..

ضربت الرقم بأصابع مرتعدة من فرط العصبية ، وأتانى صوت عامل الهاتف :

ـ فى خدمتك ..

ـ أحتاج لمعرفة مكان المكالمة الأخيرة ..

ـ دقائق ويكون لديك ..

تركنى ألتهم بعضى ، وأقضم أظفارى ممارسة لعبة الانتظار التى لا أبغض فى الدنيا قدرها !

ـ ما هذا ؟!

فيم العجب ، سألته منفعلة :

ـ ماذا وجدت ؟!

ـ إنها قادمة من خارج (مصر) كلها .. ولو راجعنا الكود المطلوب فهى قادمة من (الولايات المتحدة الأمريكية) ، بالتحديد مدينة (نيويورك) .. هل لك أقارب هناك يا آنسة ؟!

آلو .. آلو ..

كانت السماعة قد سقطت من يدى ، وأنا أحدق بارتياع فى شاشة التلفزيون ..

السيد (سالم نعيم) يقف فوق منصة المعرض .. قائلاً بانجليزية سليمة :

ـ لا أومن فى حياتى بحكمة قدر التى تقول إنه ليس كل ما يلمع ذهبًا !

(س) .. (سالم) .. (سامح) ..

أظنكم فهمتم سر ارتياعى ..

وسر الخواطر المفزعة التى جالت فى أعماقى ..

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

رقم الإيداع : ٩٩/٨٩٤٧

روايات مصرية للجيب

سلة الروايات

في كل رواية متعة دائمة !!

٢٢٦٩٩

مغامرات "س"

رجل من وهم

محمد سليمان عبد المالك

إنه يعرف كل شيء ..

يعرف اسمك وعنوانك ورقم هاتفك ، ويعرف كل ما تفكر فيه قبل حتى أن تفكر فيه ..

إنه يراك ، يعيش معك ، يتنفس برئتيك ، وينتشر عبر مسام جلدك إلى دمائك ..

لكن المدهش ..

أنك أبدًا لن تعرف عنه شيئًا ، مهما حاولت ..

الثمن فى مصر
وما يعادله بالدولار
فى سائر الدول ال